الوحيد البهبهاني

رجل العقل

تأليف

عباس العبيري

ترجمة: كمال السيد

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمْ



لقاء مع الأبرار

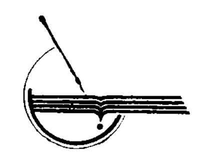
«١»

الوحيد البهبهاني

رجل العقل

تأليف: عبّاس العبيري

ترجمة: كمال السيّد



ايران ـ قم ـ شارع الشهداء مؤسسة انصاريان
ـ ص. پ ١٨٧ ـ تليفون ٢١٧٤٤

اسم الكتاب .... الوحيد البهبهانى
المؤلّف .... عباس العبيري
المترجم.. كمال السيد
الناشر.. مؤسسة انصاريان
الكميّة.. ٣٠٠٠
صفّ الحروف................ "افتخاري" للخدمات الثقافية ٦١٩٤٠٣
المطبعة.. صــدر ـ قم

الفهرس

كلمة الناشر

عديدة هي الطلبات التي تلقّتها مؤسسة أنصاريان سواء عبر الهاتف أم خلال رسائل القرّاء الكرام، وكلّها كانت تدور حول كتب تتحدث عن حياة العلماء من الذين كان لهم دور مشرق في عالم الفكر ودنيا العلوم، وقد عكفت المؤسسة علىٰ دراسة الموضوع باهتمام، استجابةً للرغبات المخلصة المتعطشة للثقافة الإسلامية؛ ورموزها.

واذ تقدم «أنصاريان» سلسلة ـ لقاء مع الأبرار ـ فإنّها تتمنىٰ أن تلقىٰ الرضا والقبول من لدن جميع القرّاء الكرام، والله الموفّق.

مؤسسة أنصاريان



تمهيد

يعدّ تسجيل سيرة وأخلاق ومواقف الأولياء من الأساليب المؤثرة تربوياً؛ ذلك أنّ حياة الأنبياء والأئمة والصالحين تزخر بآلاف الدروس والعبر التى تخطّ طريق الخلق الكريم.

فالأنبياء جسّدوا تعاليم السماء عَبْرَ مواقفهم وسيرتهم فرسموا بذلك طريق الحياة الطاهرة التي تعبّر عن طموحات الإنسانية. انهم امثلة حيّة لكلّ الفضائل والصفات والأخلاق السامية.

لقد أشاد القرآن الكريم بالأنبياء ودعا البشر جميعاً الىٰ استلهام مواقفهم واعمالهم.

واذ تتصدىٰ مؤسسة «باقرالعلوم» للبحوث الىٰ إصدار هذه السلسلة «لقاء مع الأبرار»؛ فانما تهدف الىٰ تسليط الضوء علىٰ حياة العلماء والتعريف بسيرتهم لتكون مشاعل متوهّجة تنير الدرب للأجيال.

مؤسسة باقر العلوم للبحوث



مقدمة المترجم

قدر للتيار الاخباري أن يتخذ من كربلاء مركزاً له بعد أن مُني علم الأصول بهزيمة كادت أن تقضي عليه، وكان لدور العقل الحساس مثار استفز الاخباريين ودفعهم الىٰ اتخاذ موقف متطرف ضدّه. وقد ظلت الأمور تسير في صالح الاتجاه الاخباري الىٰ أن ولدت في نفس كربلاء مدرسة جديدة في الفقه والأصول علىٰ يد رائدها المجدد الكبير محمّد باقر البهبهاني المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ ليبدأ صراع مرير بين التيارين انتهىٰ بانتصار علم الأصول واضمحلال الاتجاه الاخباري وهزيمته.

ولقد وضعت جهود البهبهاني المتضافرة حدّاً فاصلاً بين عهدين من تاريخ الفكر العلمي في الفقه والأصول.

ربما لايعدو الكتاب كونه محاولة لاستعراض الجانب التسجيلي في حياة واحدة من الشخصيات الكبيرة في تأريخنا الحديث؛ ومايزال الباب مفتوحاً لاستكشاف الأبعاد المجهولة من تلك الشخصية العملاقة. وبالرغم من ذلك فإن القارئ الكريم سوف يشهد بوضوح ثلاث علامات

مضيئة في حياته المشرقة؛ الأولى: شغفه المنقطع النظير بطلب العلم، فقد كان العلم همّه الدائم وهاجسه الوحيد في حلّه وترحاله، والثانية زهده العميق في الدنيا واسبابها الفانية، واخيراً: تمجيده للعقل الإنساني جوهرة الخلق الإلهي في اختيار الطريق.. الطريق الذي يقود الإنسان الىٰ السعادة في الدارين.

... غير غافلين عن تلك الشفافية الروحية التي تكاد تسمو بالبهبهاني العظيم الىٰ عالم نوراني رفيع.

كمال السيّد

الفصل الأوّل

مدينة النجوم

سبعة أعوام مضت علىٰ رحيل العلامة المجلسي، واصفهان التي كانت من كبريات المدن الاسطورية، هي في طريقها نحو هاوية الإنحطاط، فبدت وكأنها مقفرة بعد غياب علمائها العظام من أمثال «بهاء الدين العاملي» و «ميرداماد» و «المجلسي» فى حين ركَن السلطان حسين الىٰ حياة الدعة واللهو تاركاً مقاليد الحكم والسياسة بأيدي الآخرين.

و «محمّد الأكمل» رجل من سلالة الشيخ المفيد، كوكب أخير من تلك النجوم المنطفئة فى سماء عاصمة الصفويين الآخذة بالإضمحلال.. انه يعيش في زاوية من زوايا المدينة.. رجلٌ عالِم يجلّه الناس، ينهلون من علمه ويأتمّون به.

الميلاد

بدا البيت الصغير لـ«محمّد» هذه الليلة يزخر بالحركة.. جمع من النسوة يقمن بأعمال مختلفة.. واحدة تسخّن الماء، وأخرىٰ تغسل الآنية،

وثالثة تطهو الطعام، بينما تدور امرأة عجوز في حجرات البيت حاملة اقداح الشربت.

الوقت بعد منتصف الليل، ولمّا يخامر النوم عيون من فى المنزل، والجميع ينتظرون، ومحمّد الأكمل هو الآخر، وكعادته كل ليلة، أوىٰ الىٰ مكتبته الصغيرة يتضرّع الىٰ الله:

ـ رحماك يا ربّ. احفظ الأم ووليدها من كل مكروه. زوجتي ذكرىٰ لرجال عظماء مثل «الملّا صالح المازندراني» و «العلّامة المجلسي».. فأقسم عليك يا الٰهي بما عندهم من الشأن أن تعصمها من كل سوء.. يارب يا..

ـ إنّه صبيّ يا سيّدي.. مبارك عليك، وجعله الله قدم خير، إنّه كالزهرة المتفتّحة.. سليم ومعافىٰ..

ردّدت ذلك العجوز وهي تشدّ «الشادر»[١]، وقد طفح وجهها بالفرحة والبشرىٰ.

هوىٰ محمّد الأكمل الىٰ الأرض ساجداً شاكراً لله سبحانه علىٰ هبته في هذا الوليد.

لم يتأخّر محمّد في إجابة العجوز إذ سرعان ما دسّ يده تحت الحصير وانتشل صرّة النقود ليقدّمها قائلاً:

ـ الله يجزيك بالخير يا كربلائي[٢] نجمة.

---

(١) الشادر: عباءة تلتفّ بها النسوة في إيران ـ المترجم.

(٢) تطلق عادة علىٰ من زار مرقد الحسين (ع) في كربلاء ـ المترجم.

قالت العجوز وهي تغادر الحجرة: أطال الله في عمرك. إذا لزم الأمر أرسل ورائي وسأحضر علىٰ الفور.

لحظات مرّت ثمّ جاءت اخته تحمل الوليد الىٰ والده. ويحتضن الأب ابنه فيؤذّن ويقيم في أذنيه ثمّ يدعوه باسم خامس ائمة اهل البيت(عليهم السلام): «محمّد الباقر».

العقيدة الخضراء

مضىٰ جزء من الليل وليس هناك من يخدش صمت الليل العميق سوىٰ نباح كلاب بعيدة.

محمّد باقر الىٰ جانب أسرته فوق سطح المنزل يحدّق في النجوم المتلألئة ويفكّر فى الغد. لقد خطف التفكير فى حياته الجديدة النوم من عينيه وهو يحسّ بكلمات عمّته تدوّي في أعماق روحه:

محمّد باقر! لقد تعلّمت شيئاً من القرآن، وآداب العرب، والمنطق، والآداب الفارسية، .. ومن الآن فصاعداً سيتولّىٰ والدك تعليمك.

ويتمتم محمّد باقر مع نفسه وهو يستعيد وجه عمته الحنون وابتسامتها الدافئة: مسكينة عمّتي.. لقد أضحت عجوزاً.

ويغالب النعاس عينيه، ويُلقي بظلاله علىٰ وجهه، فيستسلم لنوم عميق.

ويطلع الفجر وينطلق محمّد باقر لحضور درس والده بشوق. وتبدأ

مرحلة جديدة فى حياة الفتىٰ.. مرحلة حافلة بالآداب والحكمة، والفـقه والأصول، وتفسير القرآن والحديث، وتنفتح أمامه نافذه جديدة وآفـاق واسعة صقلت مواهبه، فراح يقتني من تلك الكنوز، وينهل من تلك الينابيع، غير حافل بشيءٍ آخر. ولكنّ القدر كان له رأي آخر، فهناك حادث فـي انتظاره.. حادث مروّع.

الكارثة

عاد للمرّة الأخيرة. راح يتأمّل التراب النديّ وهو يتمتم مع نفسه:

هل يُعقل أن يغيّب التراب ذلك الوجه المضيء.. ذلك القلب الدافئ وتلك العينين الصافيتين؟! هل يعقل أن يضمّ التراب كـل ذلك؟ آه أيّـتها الأرض كيف واتتْكِ القوّة علىٰ إخفاء البحر؟

قال ذلك ثمّ أجهش بالبكاء

ـ محمّد باقر! ألا تأتي معنا؟

هتفت عمّته. أعادت الكلمات الحـزينة رشـده. انـتبه الىٰ نـفسه وهمس وهو يجفّف دموعه:

ـ أجل سآتي.. أجل سآتي.

قال ذلك ثمّ التحق بجمع الأسرة التي لملمت أحزانـها عـائدة الىٰ المنزل.

لقد كان رحيل والده ضربة قاصمة؛ غير أنّ ذلك لم يفتّ في عزمه،

فلقد ظلّ كما هو محلّقاً في سماء الفكر.

قالت والدته ذات مساء خريفي:

ـ محمّد باقر! ماذا حصل يابني؟ تخرج في الصباح فلا تعود الاّ في المساء.. حتىٰ كأنك أعرضت عن طلب العلم.

أجاب محمّد باقر بكلمات مؤثّرة شعر أنّها تخرج من أعماق روحه:

ـ آه يا أمّي.. لو تدرين كم أبحث هنا وهناك عن أستاذ يملأ مكانة أبي.. ولكن من أين ذلك وقد ساد العاصمة هرج ومرج واختلط الحابل بالنابل بعد ماهاجمها الأفغان، فتهدّمت مساجدها وتحطّمت مدارسها؛ وراحت الامنيات أدراج الرياح، ولكن ما الذي يمكن فعله؟

هل ينصرف عن طلب العلم، وينزوي في مكان آمن؟ هل يفعل ذلك كما فعله بقية طلبة العلوم؟ ولكن محمّد باقر لم يكن ليفكر بهذه الطريقة ابداً.

خريف العمّة

كانت الأيام الأخيرة من شهر مهر[1] وقد بدت العمّة في خريف العمر.. وجهها ازداد تغضّناً، ثمّ هاجمها المرض، فجاءت الىٰ بيت أخيها.

قدّمت لها أم محمّد باقر شيئاً من الحلوىٰ والرمّان وقالت:

ـ لقد كنت في غاية القلق من اجلك. اعرف أن المصيبة قد هزّتكِ.

---

(١) الشهر السابع من السنة الايرانية ـ المترجم.

قالت العمة: ليتنى متُّ كأخي محمّد. أحياناً افكِّر وأقول بأنّ أخي كان سعيد الطالع، إذ رحل عن الدنيا قبل أن يرىٰ المصائب، فيرىٰ ماحلّ من الخراب

ـ لا تبتئسي، هؤلاء ايضاً لهم يوم وينتهون.. تفضلي تناولي شيئاً من الحلوىٰ.

قالت العمّة وهى تتناول قطعة حلوىٰ:

ـ اين محمّد باقر؟.. ما الذي فعلتُه لكي يفرّ مني فلا أراه الاّ مرّة في كل شهر! ألا يسأل عن عمّته؟

ـ ماذا تقولين؟ إنّه مدين لك بفضل كبير.. وقبل أيام..

وفى هذه اللحظة يطرق سمعهما صوت انفتاح الباب وخُطىٰ محمّد باقر تتردد وسط صمت المكان.

ـ سلام عليكم!

قالت العمّة مبتسمة:

ـ وعليك السلام.. لم أكد اذكرك حتىٰ فتحت الباب. لقد اصبحت رجلاً. ماشاء الله! نعم لقد اصبحت رجلاً ينسىٰ عمّته.

قاطعها قائلاً:

ـ اننا نعيش أياماً صعبة يا عمّتي

ـ حقّاً وأين تدرس هذه الأيام؟

ـ وهل هناك مدارس بعد ما فعل الأفغان مافعلوا.

ـ ماذا تقول؟ لقد سمعت بأن ميرزا يحيىٰ يدرّس الطلبة في قبو بيته،

وكذا الملّا عليٌّ، وهو مجتهد أيضاً، يفعل ذلك هو الآخر.

ـ لقد سئمت هذه المدينة يا عمّتي.

ثمّ أردف وهو يتناول قطعة حلوىٰ بعد أن جلس الىٰ جانب والدته:

ـ افكّر بالرحيل من هذه الديار.

ـ الىٰ أين؟ قم أم كاشان؟ أينما تذهب فالسماء لها نفس اللون.

ـ حسناً سأذهب إلىٰ سماء بلا غيوم.. شمسها لا تغيب ابداً.

وتضحك العمّة: مدينة الشعراء.

ـ لا يا عمّتى، اعني مدينة النجف الأشرف.. مدينة علـيّ، وربّـما ذهبت إلىٰ كربلاء.. لابدّ أن أرحل إلىٰ هناك. لقد رأيت في عالم الرؤيا قبل أيّام رسول‌الله صلى الله عليه وآله وكان نفر من قومه يؤذونه فاندفعت لأُبعدهم عـنه ثـمّ سلّمت عليه، وكان بيده طومار بعرض نصف ذراع.. سلّمني إيّاه، فأخذته راكضاً إلىٰ مرقد الحسين عليه السلام.

قالت الأم دون أن تتمكن من إخفاء قلقها:

ـ اذن فأنت مصمّم علىٰ السفر؟

ـ نعم يا أمي لقد تحدّثت مع كربلائي نصرالله القاطرچي، واخبرني بأن القافلة ستنطلق الىٰ كربلاء السبت القادم.

كانت العمّة تصغي وقد اشرقت في وجهها ابتسامة ثمّ قالت:

ـ اذهب.. أرىٰ مستقبلاً مشرقاً بـانتظارك. اذهب، وإذا مـا وصلت هناك، فلا تنسَ عمتّك بالدعاء عند الحرم الشريف.

لو تأخرت

خان القوافل الكبير علىٰ مقربة من جسر «سي و سه پل»[١]. المكان يضجّ بالحركة وهمهمة المسافرين، ومحمّد باقر هو الآخر كان مشغولاً بالحديث مع والدته في زاوية من زوايا الخان.

قالت الأمّ وهي تلفّ «الشادر» المورّد الىٰ جسمها:

ـ ليتك تصبر أياماً أخرىٰ!

ـ ولِمَ يا أمّي؟

ـ لقد أخبرني كربلائي غلام حسين بأنّ أخاك محمّد حسين سيعود من كازرون[٢] في الأسبوع القادم، فلو تأخرّت أسبوعاً آخر لأمكنك رؤية محمّد حسين.

ـ لقد وجدت رفاقاً للسفر ولا يصحّ التأخير بعد ذلك يا أمّي.. أبلغيه سلامي واعتذاري في تلك اللحظة.

أطلّ اخوه حسن رضا يمسك بيد ابنه الصغير.. توجّه نحوهما وسلّم عليهما. قالت الأم بعصبية:

ـ أنسيت بأنّ أباك ميّت وأخاك في كازرون وأن أمّك قد أضحتْ عجوزاً وحيدة، وقد يحتاجك محمّد باقر، وأن الأخ الكبير بمثابة الأب.

ـ ماذا حصل يا أمي؟

ـ وماذا تريد أن يحصل اكثر من هذا؟ القافلة علىٰ وشك الرحيل.

---

(١) جسر أثري كبير في اصفهان يتألف من ثلاث وثلاثين دعامة ـ المترجم.

(٢) مدينة صغيرة غرب شيراز.

ـ كنت مشغولاً يا أمّي. محمّد ابراهيم مريض، فذهبت ابحث عن «الحكيم» والدواء.

قالت أخته الكبرىٰ مبهورة الانفاس:

ـ كان ينوي التحدث مع أخيه أمس فلعلّه ينصرف عن السفر.

ـ ماذا تقولين؟ محمّد باقر ليس صبياً.. يعرف أن الحياة صعبة ولا أحد يمكنه أن يرسل مايحتاج اليه من المال.

كان محمّد باقر يصغي للحديث بصمت، إلّا أنه قال:

ـ هل أنتِ قلقة عليَّ يا أمّي من هذه الناحية؟

قالت الأم:

ـ لو تتأخر يمكن أن يفعل أخوك محمّد حسين شيئاً. ربّما زوّدك بشيءٍ من المال أو يوصي بك أحد التجّار هناك ليساعدك عند الحاجة.

كانت الأمّ تتمتم بذلك وهي تكفكف دموعها بأطراف «الشادر».

وأردفت وهي تناول محمّد باقر كيساً:

ـ مذ رحل أبوك عن الدنيا والأمور ليست علىٰ مايرام. اعذرني يا بنيّ.

ـ لا تقلقي من اجلي يا أمّي، الله موجود فى كلِّ مكان وهو لا ينسىٰ عباده.

ابتسم رضا حسن وقال:

ـ لا يصحّ البكاء عند السفر، اضحكي يا أمّي، وأدخلي الفرحة علىٰ ولدك. حقاً هل أعطيتيه العنوان؟ عنوان السيّد محمّد

ـ لم يكن عنواناً دقيقاً.. إنّه يسكن في أحد البيوت المحيطة بالحرم كما أنّه رجل معروف هناك.

* * *

ـ هيا.. ليركب الجميع.. ستتحرك القافلة.

كان صوت كربلائي نصرالله القاطرچي قد سيطر علىٰ الخان وهو يأمر المسافرين بالركوب.

وهكذا ودّع الطالب الشابُّ اسرته للمرّة الأخيرة ثمّ ركب.

وصايا مشهدي مراد

نزل المسافرون في خان علىٰ طريق القوافل للاستراحة، وجلس محمّد باقر مع خمسة من رفاقه في زاوية من الخان يتناولون عشاءهم حول النار. كان مشهدي عباس قلي تاجراً يرتدي إزاراً رمادياً ويضع علىٰ رأسه قلنسوة سوداء، قد ازدرد لقمته عندما قال:

ـ أحقاً أنت ابن محمّد الأكمل؟!

ـ نعم.

ـ الذي تُوفي قبل عامين؟

ـ نعم.

ـ ليرحمه الله.. طالما صلّيت خلفه.. لماذا لاتأكل يا بنيّ؟

لم يتحرك الرجل الطاعن في السن، فقال وهو يقضم فخذ دجاجة:

ـ كل يا بني.. كل. ياميرزا قاسم ناولني الجرّة من فضلك.

وأردف وهو يهمّ بالشرب:

ـ ينبغي للمسافر أن يرعىٰ بعض الأصول في السفر: أولاً يأكل جيداً ليتقَوّىٰ علىٰ مشاقّ الطريق.

ثمّ آستأنف حديثه بعد أن شرب الماء:

ـ الحمدلله.. نعم؛ كنت أقول...

قاطعه قاسم وهو رجل متوسط العمر قائلاً: ألا يوجد غير مشهدي مراد من يقرأ علينا هذه الوصايا الحكيمة.

ضحك «زلفعلي» الذي انتهىٰ من تناول عشائه:

ـ نعم، وإذا أردت النوم بهدوء فاخلع حذاءك.. ثالثاً: عندما تريد أن تلبس الحذاء افحصه جيّداً فقد توجد فيه شوكة تصيبك بأذىٰ.. رابعاً: اذا...

قهقه قاسم واستأنف الحديث قائلاً: رابعاً: إن مررت بحمام فلاتستحم قبل أن تخلع ثيابك ثمّ...

ابتسم مشهدي مراد وأضاءت الإبتسامة وجهه المليء بالتجاعيد:

ـ دعوني اكمل حديثي... كنت أقول: ثانياً: وهو الأهمّ، إذا صادف سفرك مع جهّال مثل قاسم أو زلفعلي أو ميرزا رضا قلي، فأعرض عنهم وتحمّل واصبر كما صبرت أنا.

وينفجر الجمع بالضحك، وهنا يقول زلفعلي:

ـ والآن حان وقت النوم، من الأفضل أن ننام مبكرين، فكربلائي نصرالله عادة مايبكر بالرحيل.

كان رضاقلي صامتاً فقال:

ـ وهل هذا وقت نوم؟ أننام الآن؟

ـ نتوسّد فعلاً ونتحدث، وقد ينشدنا قاسم بعض الأشعار الىٰ أن ننام.

توسّد المسافرون وسائدهم، قال مشهدي مراد بصوت ضاحك:

ـ كونوا حذرين يا جماعة، لقد أخبرني الحاج محسن عندما عاد من زيارة العتبات المقدسة العام الماضي بأنّ هذا الخان قد هاجمته غيلان بلا قرون ولا ذيول.

هتف عباس قلي قلقا:

ـ ماذا تعني؟

ـ لاشيء.. فقد ينتصف الليل مثلاً ويهاجمنا جنود افغان وهم بالطبع مسؤولون عن استتباب الأمن هنا، وبعد أن ينسّقوا مع الحاكم فيقومون بسلب المسافرين كل شيءٍ حتىٰ ثيابهم.

ـ وهل يعقل أن يحصل ذلك.. قطاع الطرق عادة يكمنون في المنعطفات.

قال زلفعلي:

ـ إنّهم ليسوا قطاع طرق.

ـ ومن يكونون اذن؟!

ـ الأمر واضح.. قطاع الطرق يهاجمون القوافل في الطرق لا في الخانات... هؤلاء قطاع خانات.. هاهاها...

قال مشهدي مراد غاضباً:

ـ أنا أحذِّركم وانتم تسخرون وتهذون؟!

قال محمّد باقر الذي ظل ساكتاً طوال تلك المدّة:

ـ واذن فهذا الخان ليس في مأمن من غارة اللصوص؟

قال زلفعلي مستنكراً: ماذا تريد يا مشهدي مراد؟.. أتريد أن تسلب النوم من عيني الفتىٰ ويبقىٰ ساهراً حتىٰ الصباح؟

ـ اردت أن احذركم فقط، وقد اعذر من انذر.

قال رضاقلي:

ـ ناموا يا جماعة.. لن يحصل شيء من هذا. لقد كان الأفغان جياعاً في تلك الفترة والآن قد شبعوا.. انشد يا قاسم انشد.. وانطلق قاسم يترنم بأشعار حافظ[1] عن الليل والعشق والوفاء.

---

(١) الحافظ الشيرازي شاعر إيراني معروف.

الفصل الثّاني

كل شيء في الوجود أثر لخُطاك
وهذه الشمس هي أيضاً
جزءٌ من ظلّك الوارف
لقد افترق جميع الأخلاّء
فجئت لائذاً بك.

الأمل

القافلة تقترب من مدينة النجف شيئاً فشيئاً، وانطلقت في الفضاء صلوات المسافرين، بعد أن لاحت القبّة والمنائر في الأفق البعيد.

وبدا كربلائي نصرالله القاطرچي وقد لفّه الغبار من هامته الىٰ اخمص قدميه.. هتف فرحاً:

ـ صلّوا علىٰ محمّد.. صلّوا عالياً. وتعالت الصلوات تطوف في الفضاء... كأنّ حياةً جديدة تنبعث في قلوب المسافرين وهي تهفو إلىٰ مرقد بطل الاسلام الخالد عليٍّ بن ابي طالب.

وانطلق كربلائي نصرالله الذي قاد عشرات القوافل يترنّم كعادته بمديح علي:

ـ علىٰ جمال شفيع المحشر، ساقى الكوثر، الأسد الغضنفر... صلوات.

خطوات قليلة خطتها القافلة، وبانت بوضوح خرائب المدينة وبقايا الأبراج.

سرت همهمة وتمتمات بين المسافرين وهم يلهجون بالدعاء والشكر. وشعر محمّد باقر بروحه تحلّق في سماء النور، وهو يتطّلع الىٰ القبة الخالدة.. وتدفّقت الدموع من عينيه كغيوم ممطرة دون إرادة منه.

إنّه يقترب من شجرة الولاية. وانطلق يتمتم بدعاء أخضر وهمس مع نفسه: ليتني جئت قبل هذا الوقت.. ليتني جئت مع أبي وأمّي وعمّتي لنعيش في هذه الجنّة الوارفة الظلال.

لم يكن أحد ليعرف مايدور في خلد الطالب الشابّ. وحده الاندفاع الىٰ تقبيل جدران وبوابات الحرم الشريف كشَف عن حبّه العميق.. حبّه الطاهر الذي نبتتْ جذوره وتفجّرتْ ينابيعه في ظلال علي(ع).

ويزور الفتىٰ، وينطلق هنا وهناك بحثاً عن قريب أو صديق.. وأخيراً يحلّ بمساعدتهم في مدرسة متواضعة.

لاتبكين يا أمّي

أمضىٰ محمّد باقر ليلته الأولىٰ في المدرسة يرتّب أثاثه البسيط في زاوية من حجرة صغيرة مظلمة؛ وطيوفٌ متراقصة لوجوه عزيزة تتراءىٰ امامه.. وجوه لأمّه ووالده وعمّته تلحّ علىٰ مخيلته.. عمّته، بمقنعتها البيضاء تبتسم وتقول: لقد غدوت رجلاً.. رجلاً ينسىٰ كل شيء حتىٰ عمّته العجوز.. والده بوجهه المضيء، وبصوته المرتجف وهو يوصيه: سأرحل

يابني.. وأوصيك يا ولدي بأشياء فلا تتساها أبداً: طلب العلم، الإحسان إلىٰ أمّك، إنها سلالة رجال عظماء.

ويبقىٰ طيف والدته أشدّ عذاباً له.. بصوتها الباكي وهي تـودّعه.. تمتم: لقد كانت راضية بسفري ولكن كان يشقّ عليها الفراق.. لاتبكين يا أمّي.. لن أبقىٰ فقيراً إلىٰ الأبد. لسوف اسعىٰ في قدومك إلىٰ النجف.

ظلّ محمّد باقر يناجي طيف أمّه إلىٰ أن ألقىٰ النعاس ظلاله عـلىٰ وجهه.. لينطلق الفتىٰ الحالم راكباً حصان النوم المجنّح يطوف به في عوالم بعيدة.. عوالم لانهائية.

ويطلع الفجر.. ويستيقظ الشابّ. وبالرغم من إحساسه بالتعب، إلّا انه نهض.. كأنّ نداءً يدعوه الىٰ مغادرة فراش النوم الدافئ.

همس في نفسه: إنّ ترك صلاة الليل.. والنوم كـالموتىٰ ليس مـن خصال الانسان.. فما بالك اذا كان المرء في جوار رجل التاريخ الخالد..

وهكذا ينهض نافضاً عن وجهه غبار «المادّة» شفافاً يـخطو فـي عوالم الهية.

شيءٌ واحد كان يشدّه الىٰ الواقع. إنّه صوت الأذان وهو يدوّي في الفضاء الأزرق.

شعر بأنّ امواجاً مغناطيسية تجذبه الىٰ الحـرم.. أمـواجـاً تشـمل المدينة الىٰ أقصىٰ بيوتها.. تجتذب أهلها وتشدّهم الىٰ الحرم الطاهر فيبقون إلىٰ طلوع الشمس التي لاتغيب لتغمرهم بأنوارها الدافئة.

مدرسة الحكمة المسائية

المسجد يغصّ بالطلبة الذين حضروا درس السيّد محمّد الطباطبائي البروجردي[١] في الفلسفة.

جلس رجل في الخامسة والثلاثين من العمر قرب الباب وسيع العينين كثّ اللحية.. همس في أذن صاحبه:

ـ شيخ مهدي!.. أنظر إلىٰ ذلك الشابّ الذي جلس قريباً من المنبر.. أرأيت كيف ردّ علىٰ الأستاذ؟

ـ من تعني؟ ذلك الشابّ الخفيف اللحية الذي يرتدي عباءة؟

ـ كلّا، أقصد الذي يجلس يسار المنبر..

ـ تعني ذلك الفتىٰ الذي وضع رأسه بين دفّتي الكتاب كأنّما يريد التهام أوراقه؟

ـ نعم؛ يقال إنّه وصل النجف حديثاً.. أخبرني ميرزا حسين الكاشي[٢] بأنّه من نفس مدينتك. لابدّ وأنّك تعرفه أكثر منّي.

ـ من إصفهان؟

ـ نعم.. يقول إنّه ابن محمّد الاكمل وهو يعود الىٰ الأستاذ بصلة رحم.

ـ اذا كان ابن محمّد الأكمل حقاً، فمن البديهي أن يكون كذلك؛ ذلك

---

(١) من كبار الفقهاء في عهده. له رأي في العلوم العقلية. ألّف كتباً عديدة، في طليعتها شرح مفاتيح الفقه، رسالة في تحقيق الإيمان والاسلام، حياة المعصومين وأماكن دفنهم، رسالة في حكم من يصوم يوم عاشوراء، ورسالة في أسرار الأشكال الخاصّة بألف باء الحروف.

(٢) نسبة الىٰ مدينة كاشان.

أن زوجة محمّد الأكمل تنتسب الىٰ نفس أسرة الأستاذ وهما من أحفاد الملّا صالح المازندراني.. صهر العلّامة المجلسي الأوّل، بل ان الأستاذ نفسه هو ابن أخت السيّد محمّد باقر المجلسي، وإذن فهو حفيد المجلسي الأوّل.

ـ عجيب!

بدا الشيخ مهدي وكأنّه يريد أن يقول شيئاً مهمّاً، ولكن صوت خادم المسجد دوّىٰ معلناً:

ـ أيّها السادة! الأستاذ اليوم مريض..

وطغتْ همهمة بين جموع الطلبة، ثمّ بدأوا يغادرون المسجد فرادىٰ وجماعات.

قال الشيخ مهدي مستأنفاً الحديث:

ـ اذن فهذا الفتىٰ ينتسب الىٰ أسرة عريقة؟

ـ نعم هذا من جهة الأم.. ومن جهة الأب فإنه ينتسب الىٰ الشيخ المفيد. والآن هيابنا اليه.. لعلّه يحمل أخباراً عن أسرتي.. فانا ـ كما تعرف ـ قلق منذ هجوم الأفغان ولا أدري ماذا حلّ بها.. ربّما أنجاني هذا الفتىٰ من هواجسي.

ويجلس الرجلان بعد أن سلّما علىٰ محمّد باقر الذي كان مشغولاً بجمع كتبه ودفاتره.

ـ مرحباً بك.. سمعت بأنّك قادم من اصفهان حديثاً.

ـ نعم منذ ثلاثة شهور تقريباً.

ـ وهل كنت حاضراً بعد أن شغب فيها الأفغان؟

ـ نعم.

ـ اسرتي تعيش خلف المسجد الجامع.. وقد شعرت بالقلق عليها، فهل لديك اخبار؟

ـ انا لم اكن حاضراً ولكن أخبرني أصدقاء بأن تلك المحلّة بقيتْ بعيداً عن العدوان.

ـ احمد الله، فقد ارتاح بالي قليلاً.

البشرىٰ

شمس يوم الجمعه تتوسط السماء شيئاً فشيئاً.. مرّ عامان علىٰ قدوم محمّد باقر الىٰ النجف وهو مايزال يطوي المسافة بين الحرم والمدرسة هادئاً.. واصوات الباعة تعلو في الفضاء وهم ينادون علىٰ بضائعهم البسيطة المعروضة علىٰ قارعة الطريق. خان القوافل القريب من الحرم يعجّ بالمسافرين المنتظرين.

همس محمّد باقر وهو يجيل نظره في الخان الذي بدا كطلل قديم.. وسط مدينة تبدو وكأنّها خرائب خلّفها الزمن الراحل:

ـ خان القوافل مجرّد انقاض.. المدارس ليست مناسبة.. اللحم والقمح والشعير والخضروات غالية، الناس يأكلون في العادة التمر والحليب والخبز.

ـ السلام عليكم يا سيّد محمّد باقر. أراك غارقاً في التفكير.

كان صوتَ سيّد محسن، وهو رجل متوسط العمر قويّ البنية.. تعرّف عليه في درس الحكمة.

ـ وعليكم السلام.

ـ ماذا حصل؟ هل غرقتْ سفُنك؟!

ـ كنتُ أفكر لو أن مرقد الإمام علي في إيران لما أضحت المدينة بهذا الوضع.

ـ هل حصلت مشكلة؟ نحن أهل مدينة واحدة والصديق لوقت الضيق ـ كما يقال ـ فلا تخجل ابداً.

ـ لا.. لا لم يحصل شيءٌ ابداً.. كنت أتحدّث عن المدينة.. عن هذه الخرائب.. خان القوافل.. المدارس.. تصدُّع السور والأبراج.. مياه الشرب.. وخطرتْ في بالي فكرة.. لو أنّ المرقد في إيران لكانت النجف مثل مشهد.

ـ هذا صحيح.. ملوك إيران علىٰ فسادهم وانحرافهم عن الدين، يحاولون التزلّف إلىٰ الشعب في إنفاق الأموال الطائلة.. وماتراه من عمران في النجف يعود إلىٰ ماقام به الملك طهماسب..

ـ اعذرني، أنا في عجلة من أمري، فولدي مريض وقد جئت أبحث عن شيءٍ من «الآويشن»[1].

وأردف مبتسماً:

ـ أَلَديك حاجة؟

---

(١) نبات صحراوي معطّر أوراقه صغيرة وساقه قصيرة ينفع في سوء الهضم.

ـ.. اشكرك.

ـ إذن استودعك الله.. سأراك فيما بعد.

ـ في أمان الله.

لم يكد سيّد محسن يخطو عدّة خطوات حتىٰ عادة مـرّة أخـرىٰ قائلاً:

ـ هل سمعت باسم صدر الدين الهمداني؟

ـ الىٰ حدّ ما.

ـ إنّه من علماء مدينة قم.. وقد قدِم الىٰ النجف بعد هجوم الأفغان.. وهو الآن يدرِّس الفقه، ويقال بأنّه دقيق جداً في دروسه.. وهو من تلاميذ فاضل الهندي وجمال الدين الخونساري، والشيخ جعفر القاضي.

ـ اتذكَّرُ أن والدي قد حدّثني عنه.

ـ إنّها فرصة طيّبة.. بل لعلها بشرىٰ بالنسبة لك والآن في امان الله.

ـ مهلاً! أنا أيضاً لديّ خبر طيب.. دسم وحلو، فأنت مدعوّ لوليمة.

ـ أين في حجرة السيّد محمّد باقر؟!

ـ كلّا في منزل السيّد محمّد الطباطبائي، سيكون غداؤك يوم الثلاثاء القادم في الثالث عشر من شهر رجب.

ـ وما المناسبة؟

ـ عرس.

ـ عرس من؟ ومن هو العريس؟

ـ انـصرِف الآن واشـتر «آويشـنك» حـتىٰ لاتـزعل أمّ العـيال...

سأخبرك فيما بعد...

قاطعه السيّد محسن:

ـ وأخيراً أصبحت عريساً.

ـ أحسنت.

وضحكا معاً وهما يفترقان.

أصداء الحفل

شمس الثالث عشر من رجب تشقّ طريقها نحو الأفق شيئاً فشيئاً، وسيّد محسن يعبر الشوارع والازقّة ثمّ يوصل نفسه إلىٰ أحد الأزقّة المؤدّية للحرم، لم يكد يصل منتصف الزقاق حتىٰ بدأ يسمع صوت ميرزا علي المدّاح وهو يشدو بصوت عذب:

بلغ العلىٰ بكماله   كشف الدجىٰ بجماله

حسنت جميع خصاله   صلّوا عليه وآله

وانطلقت الصلوات من الحناجر لتملأ فضاء الأزقّة. وبين الحين والآخر يدخل ضيف فيجد من يهديه إلىٰ مكانه في الحجرة الطينية، وكان محمّد باقر جالساً في زاوية الحجرة وقد غمره الحياء مطرقاً برأسه إلىٰ الأرض وصواني الشربت تدور علىٰ الحاضرين.

همس سيّد محسن وبصوت خافت وهو يلثم قدح الشربت:

ـ مرحىٰ.. مرحىٰ أحسنت يا محمّد باقر لقد صاهرت اسرة عريقة.

ومُدّت السفرة وتناول المدعوّون الطعام.

مسافر من اصفهان

المدرسة غارقة في همهمة الطلبة، وسيّد صدر الدين الهمداني[١] جالس مع جمع من مريديه.

وصل السيّد محسن ووضع يده علىٰ كتف محمّد باقر وهمس في أذنه قائلاً:

ـ لديّ أخبار تهمّك.

ـ ولم العجلة؟ عندي أسئلة مهمّة أريد طرحها علىٰ الأستاذ.

ـ وهل تنتهي أسئلتك؟ اتركها ليوم غد.

ـ ماذا حصل؟

ـ لاشيء، لقد وصل أخي ميرزا كاظم من اصفهان.

ـ حسناً ثمّ...

ـ لنذهب الآن.. تعال معي.

وخرجا معاً من المسجد، قال محمّد باقر مبتسماً:

ـ تعني ميرزا كاظم الذي وقع في أسر قطّاع الطرق.

ـ نعم.. وهل حدّثتك بقصّته؟!

---

(١) من كبار المحققين في زمانه. ألّف: الشروح الوافية وسطّر في ذلك ماينيف علىٰ خمسة عشر ألف سطر؛ ذكره السيد نعمة الله الشوشتري بقوله: إنّه أفضل من رأيت في العراق، وكان أهل النجف يزورونه تبرّكاً ويستفتونه في مسائلهم الشرعية.

ـ أخبرتني في العام الماضي.. وقلت أن زعيم اللصوص أطلق سراحه بعد أن عثر على ديوان اشعاره وعرف أنّه شاعر.

ـ لقد أخبرتك بذلك لكي أنجو من لسانك وأقول لك أن الشعر قد يكون سبباً في نجاة البعض من الهلاك.

ـ والآن ماذا حصل؟ هل تجاهل قطاع الطرق هذه المرّة أشعاره؟

ـ ماذا تقول أنا أحمل لك أخباراً محزنة ولا أدري مدىٰ صبْرك؟

ـ بالطبع سأصبر إلاّ إذا كان خبر موتك لاسامح الله فلا طاقة لي بتحمّل هذه المصيبة.

ـ دع المزاح جانباً.. قلت لك خبر محزن.

ـ وماهو؟

ـ لابد وأنّك ستجزع.

ـ ليس هناك ماهو أصعب وأمرّ من رحيل أبي رحمه الله.

ـ أخبرَني أخي بوفاة عمّتك ليرحمها الله.

ـ يرحم الله جميع موتانا، لنذهب إلى الحرم.

رجال مجهولون

الشمس تصبُّ أشعّتها الحارقة فوق بيوت النجف الطينية، كان الوقت اصيلاً ومايزال لهيب الحرّ خانقاً، وبيت محمّد باقركغيره من البيوت يكاد يذوب من اللهب.

لجأ الطالب الشابّ مع زوجته وابنه الصغير الىٰ السرداب.

الاب كعادته كان مشغولا في المطالعة.. ووسْط ذلك الصمت ارتفع صوت.. طرقات متوالية علىٰ الباب.. اسرع محمّد باقر ليرىٰ من الطارق.

ثلاثة رجال مجهولين. احدهم طاعن في السن قد اشتعل رأسه شيباً، يميل الىٰ القصر، وقد بانت النحافة فيه بحيث برزتْ عظامه في أماكن متعددة من جسمه. كان الرجال يرتدون زيّاً إيرانياً.

ـ اعذرنا إذا ازعجناك في هذه الساعة.. اننا غرباء نبحث عن منزل السيّد محمّد باقر الإصفهاني.

ـ تفضلوا.

ـ نحن قادمون من «قنوات» و «بهبهان» ولدينا حاجة.

ـ هذا منزلكم.. تفضلوا.

دخل الرجال الثلاثة.

ـ يا الله! ... يا الله!

ـ منزلكم. تفضلوا.. تفضلوا.

ويسرع محمّد باقر ليأتي بعد قليل حاملاً اقداح الشربت.

بدا الرجال الثلاثة وقد التقطوا انفاسهم بعد أن تخففوا من بعض الثياب.

قال الرجل الأشيب الطاعن في السن:

ـ اسمي إمامقلي.

وأردف وهو يشير الىٰ رجل متوسط العمر.. شعره مجعد في قامة

مديدة.. اسمر الوجه:

ـ وهذا ميرزا طاهر.

ثمّ اشار الىٰ الرجل الثالث وقد بدا أقصر بسبب كرشه.. انزع الرأس:

ـ وهذا الحاج قربانعلي.

إبتسم محمّد باقر مرحِّباً:

ـ هل تناولتم الغداء؟

ـ نعم في خان القوافل.

ـ ما هي أخبار بهبهان؟

ـ الحمد لله. كل شيء علىٰ ما يرام.

ـ هل هاجمها الأفغان؟

ـ وهل بوسعهم ذلك؟

الحاج قربانعلي الذي ظل ساكتا، قال مقاطعاً:

ـ الناس هناك أصحاب غيرة. جاءنا الأفغان بقيادة آزام خان و.... .

قال امامقلي مصححاً:

ـ آزادخان. لا آزام خان.

ـ نعم آزادخان... جاءوا.. توقّفوا خلف الأسوار.. صوّبوا مدافعهم نحونا.. ولم يكن بحوزتنا سوىٰ مدفع واحد.

اندفع ميرزا طاهر قائلاً بحماس:

ـ أنا ألقمت المدفع بنفسي..

ـ ورأى المدافعون أن يقوم السيّد عبد الله البحريني بإطلاق أول

قذيفة تبرّكاً، وقد سقطت القذيفة من حسن الحظ قرب خيمة القائد آزادخان الذي اصابته بعض الجراح فتطيّر من ذلك وأصدر أمره بالإنسحاب.

ـ حقاً كيف حال الملاّ محمّد رضا، أرجو أن يكون بخير، إنّه ابن عم والدي.

خيّم صمت ثقيل في فضاء الحجرة الطينية الصغيرة، وتبادل الرجال الثلاثة النظرات فيما بينهم.

ـ لقد جئنا من أجل هذا الغرض.. رحمه الله.. وقد ذكرك لنا عندما كان يحتضر.. من أجل هذا جئنا بخدمتكم.. الناس ينتظرون قدومك.

قال ميرزا طاهر:

ـ ليرحمه الله... كان رجلاً صالحاً.. أصبحنا بعده كغنم غاب راعيها.

نهض امامقلي وارتدىٰ ثوبه قائلاً:

ـ سنعود إلىٰ الخان.. قافلتنا ستنطلق بعد غد. سآتي منزلكم لنعرف رأيكم يا سيّدي.. الاربعاء عند أذان الفجر. أرجو أن تفكرّ في الموضوع.

ـ ولِمَ هذه العجلة؟

ـ لانريد أن نشغلك عن دروسك، اما نحن فقد نذهب إلىٰ كربلاء.

أغلق الرجال الثلاثة خلفهم الباب.. وعاد محمّد باقر ليجد زوجته تنظر إليه وتنتظر.

ـ من يكون ضيوفك؟

ـ رجال قدِموا من إيران وطلبوا مني أن أذهب الىٰ بلدتهم.

ـ وماذا كان جوابك؟

ـ هل أنتِ قلِقة؟

ـ لا أبداً.

ـ لمْ أتّخذ قراري بعد.. لكن

ـ لكن ماذا؟

ـ لقد أخطأت بعدم إجابتهم.. لقد قطعوا مسافات شاسعة من أجلي.. لابدّ وأنّ بلدتهم بحاجة الىٰ من يرشدهم ويعلّمهم أحكام الدين.. لابدّ من الذهاب.. نعم.. لابدّ.

الإلتحاق

اجتمع شمل الأسرة في بيت السيّد محمّد الطباطبائي الذي أجلس حفيده في حجره وراح يداعبه:

ـ اضحك.. اضحك يا محمّد علي.. أضحك لجدّك.

قالت الزوجة

ـ خذ الصبي من جدّه ليرتاح قليلاً.

ـ دعيه في حضن جدّه.. انظري كيف يضحك.

ويواصل الجدّ مداعبة حفيده:

ـ محمّد علي! أتريد أن تترك جدّك وحيداً وتذهب؟

ويلتفت الجدّ الىٰ صهره:

ـ هل فكّرت جيداً؟

ـ لقد جئت مستشيراً في الموضوع.

ـ أهل البلدة ـ كما يبدو ـ بحاجة الىٰ من يرشدهم ويعلّمهم مسائل دينهم، وكما تعلم فـ «الاخباريون» هناك لهم تأثيرهم والناس يحتاجون الىٰ فكر صحيح.. ولعلّ من واجبي أن اذهب.

ـ مادمت ترىٰ هذا واجباً، فلامعنىٰ للاستشارة. اذهب وتوكّل علىٰ الله.

كانت زوجة محمّد باقر تعدّ سُفرة العشاء فقالت:

ـ يذهب؟! أنفارقكم بهذه السهولة!!

ـ اذا كان الواجب يحتّم عليه ذلك، فلا مجال للتأخير. هل تنوبين عنه في الجواب يوم الحساب؟

ـ وإذن فعلينا أن نتعشىٰ ثمّ نتهيّأ للسفر وتحمّل مرارة الفراق.

إمامقلي! وداعاً

خان القوافل يضجّ بأجراس الجمال وأصوات المسافرين.

جلس ميرزا طاهر والحاج قربانعلي ينتظران عودة إمامقلي الذي ذهب الىٰ منزل السيّد..

قال ميرزا طاهر وعيناه مثبتتان علىٰ بوابة الخان:

ـ السفر مع هذا العجوز يصدّع الرأس. لقد مرّت ساعتان ولمّا يعُد بعد... وقد تتحرك القافلة فماذا نفعل عندها؟

قطع الحاج قربانعلي تسبيحه مستنكراً:

ـ إنّه من رجال الله ياميرزا.. لاتـخش شـيئاً. سـيصل فـي الوقت المناسب.

مرّتْ لحظات وظهر إمامقلي هاتفاً:

ـ سلام عليكم.

ـ وعليك السلام . لماذا تأخّرت؟

ـ ولكنّي وصلت كما ترىٰ في الوقت المناسب.

ـ وماذا وراءك.. هل يأتي السيّد أم لا؟

ـ نعم سيأتي.. الشهر القادم.

حرّك قربانعلي قلنسوته الصوفية وتمتم:

ـ وإذن فعلينا أن نعود إلىٰ النجف مرّة أخرىٰ.

ـ الأفضل أن يذهب أحدنا ليخبر أهل البلدة بذلك ويبقىٰ الإثنان لمرافقة السيّد في سفره.

سأل ميرزا طاهر حائراً:

ـ لا أدري ماذا نفعل؟ أنبقىٰ أم نرحل؟

قال إمامقلي بعصبية:

ـ أنت عجول دوماً... اذهب أنت وسنبقىٰ نحن هنا.

برطم ميرزا طاهر:

ـ أنا لست رفيقاً لمنتصف الطريق.

قال قربانعلي:

ـ ليس الأمر كما تقول... يتعيّن أن يذهب أحدنا الىٰ البلدة ليخبرهم بقدوم السيّد... اذهب أنت يا امامقلي... القافلة علىٰ وشك الرحيل.

ويركب امامقلي جمَله هاتفاً:

ـ في أمان الله... هل من وصية؟

ـ السلام فقط... في حفظ الله.

الفصل الثالث

انشد يا ميرزا

عاد مشهدي رجب من حقله وهو يحمل مجرفته التي بدت تنافسه في الطول؛ وخاطب ـ وهو يشقّ طريقه في الأرض الموحلة ـ جاره غلام حسين:

ـ سيفتحون قناة مصطفىٰ خان علىٰ أرضنا هذه الليلة... يتعيّن علينا أن نعود في الليل لمراقبة الماء.

ـ لا أظنّ، سوف يفتحونها علىٰ الأراضي الدنيا.

ـ انظر إلىٰ ذلك الحشد من الناس.. اظن أنّ احداً قد مات!

ـ عضّ علىٰ لسانك يا رجل.. لماذا تنعق كالغراب. إنّه امامقلي.

وصل امامقلي قريباً منهما.

ـ ماذا تفعلان هنا؟ هل أنتما من عالم آخر؟

ـ ماذا حصل؟

ـ اليوم سيصل ابن عم المرحوم ملاّ محمّد رضا، السيّد محمّد باقر الإصفهاني.

ـ من إصفهان سيأتي؟

ـ كلّا، من النجف.

ـ النجف!

ـ نعم، أخبرني ميرزا طاهر، وقد ذهب كل من كربلائي تقي والحاج علي جمعة لاستقباله.. ربّما يدخلون قريتنا في أية لحظة. وأردف وهو ينظر بعيداً:

ـ انظر لقد وصل قربانعلي .. صلّوا علىٰ النبي.

ـ قلت إن السيّد محمّد باقر الإصفهاني سيصل، ثمّ تقول وصل قربانعلي! صلوا علىٰ النبي !

ـ ألا تدرون بأنّ قربانعلي كان في النجف لمرافقة السيّد في قدومه الىٰ هنا؟ انشد يا ميرزا كاظم.. انشد.

وراح ميرزا كاظم يشدو ويترنّم بالصلوات علىٰ النبي وآله.

وتعالتْ في فضاء الحقول الواسعة أصداء ألحانٍ سماوية عذبة، زادت من روعة غروب القرية الجميل.

ليلة في المسجد

ـ يا سيّدنا! قريتنا في الحقيقة تنقسم الىٰ قسمين؛ يفصل بينها خط يطلق علىٰ الأول «قنوات» وعلىٰ الثاني «بهبهان».

ـ يعني هناك خط يفصل بينهما؟

قال كربلائي يحيىٰ وهو رجل قصير نحيف الجسم وهو يداعب لحيته المخضبة:

ـ كلاّ يا سيّد، هناك زقاق طويل يفصل بينهما اصطُلح عليه بالخطّ.

تدخّل ميرزا طاهر مقاطعاً:

ـ لقد سعىٰ المرحوم ملّا محمّد رضا للصلح بين الطرفين ولكن الأجل لم يمهله ـ رحمه الله. جلسنا ذات مساء في رمضان إلىٰ منتصف الليل ولكن.. لم ينتهِ الأمر إلىٰ نتيجة، ونهض أعيان بهبهان وغادروا المسجد.

تدخّل مشهدي مراد وهو يعيد تثبيت قلنسوته:

ـ يا سيّدنا أصل الخلاف حول قناة مصطفىٰ خان.. المياه هي أساس المشكلة. فاذا حُلَّت هذه المسألة انتهىٰ الخلاف وعاد الوئام.

أخرج كربلائي تقي خاتم العقيق من أصبعه وأعاده مرّة اخرىٰ وهو يتمتم بأسف:

ـ لا معنىٰ لهذا الخلاف أبداً.. نحن أبناء قرية واحدة.. هم مسلمون ونحن مسلمون وجيران ايضاً؛ فلو سمح السيّد بدعوة زعماء الفريقين الىٰ الحضور في مدرسة خيرآباد لتناول طعام الغداء، ثمّ نفكّر فيما ينبغي عمله.

قال السيّد محمّد باقر الذي كان يصغي آسفا:

ـ قال الله سبحانه: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا» وقال في موضع آخر من كتابه الكريم: «إنّما المؤمنون اخوة» .. أليستْ هذه كلمات الله؟ ألم يأمرْنا الله بالتآخي وعدم التنازع؟...

أرجو أن يعود الوئام ويحلّ الصفاء.. لكي يرضىٰ عنّا صاحب الزمان ويبارك لنا الله...

قال امامقلي موجِّهاً كلامه للسيد محمّدباقر:

ـ يقول البعض بأننا يجب أن نرجع الىٰ احاديث الائمة مباشرة فنعمل بما جاء فيها دون الحاجة الىٰ مرجع تقليد.. أي أن نقوم بتقليد الائمة دون الحاجة إلىٰ شخص آخر.

كان محمّد باقر يعرف أن مذهب «الاخباريين» له تأثير في هذه المناطق، فقال بهدوء:

ـ إنّهم مخطئون، فمن أين لنا أن نعرف أنّ هذه الاخبار صحيحة وأن الأئمة قالوا ذلك حقاً، فهناك أحاديث نُسبت زوراًإليهم، وسندها ضعيف، كما أنّ بعضها يتناقض مع القرآن، فمن الذي يمكنه أن يميّز الخبيث من الطيب؟ وإذن فلابدّ من وجود شخص يقوم بتفحّص الروايات ليعرف غثّها من سمينها.

ـ هذا هو الحق.

قال الحاج قربانعلي مزهوّاً:

ـ اذكر أنني قلت لأحدهم: اذا كان الأمر كما تقولون فلا داعي أن ينفق المرء من عمره عشرين أو ثلاثين عاماً في النجف بين الدرس والتحقيق؛ فكلّ من يعرف القراءة والكتابة يمكنه أن يصبح في مقام الفتوىٰ بعد أن يطّلع علىٰ بعض الكتب التي تتضمّن أخبار الأئمة!... رحم الله ملاّ محمّد رضا كان كلامه مثل كلامك تماماً!

بهبهان

همس الحاج غلام رضا الذي جلس الىٰ جانب السيّد:

ـ سيّدنا لقد دعوت جميع رجال قنوات لتناول طعام الغداء طبقاً لأوامركم.

ـ استغفر الله.

ـ ارجو أن تعود المياه الىٰ مجاريها، ويعود الوئام.. قدومكم بركة وخير لبهبهان...

أردف الحاج وهو يوجِّه خطابه للقائمين علىٰ المأدبة:

ـ مشد[١] مصطفىٰ! لاتنسَ صحن المرق في هذه الزاوية.. وأنت يا حسين أخبرهم بأن اللبن قليل.. ولاتنسَ صحن السمن لكربلائي إمامقلي:

وبعد أن تناول المدعوّون الطعام، نهض امامقلي قائلاً:

ـ لنذهب يا سيّدنا.

واردف وهو يخاطب الحاج غلام رضا:

ـ بارك الله فيك، ورحم والديك، ارجو أن تسمح لنا بالإنصراف.

ـ ولِمَ العجلة؟ إنّ أهالي بهبهان يتمنّون علىٰ السيّد البقاء بينهم.. يصلّي بهم ويرشدهم. وانت يا كربلائي لتبقَ ايضاً.

ـ اشكركم يا حاج ولكن لابدّ من ذهابي. اما السيّد فبوسعه البقاء اذا أحبّ.

وهكذا غادر المدعوّون منزل الحاج غلام رضا فيما بقي السيّد

---

(١) مختصر مشهدي.

محمّد باقر في بهبهان.

نعوذ بالله.. يا له من زمن!

بدت مدرسة خيرآباد مقفرة كعادتها في كل جمعة ولم يكن هناك سوىٰ مشهدي كرم.. فرّاش المدرسة العجوز.. جلس يتدفّأ بأشعّة شمس آذر[1].

دخل ميرزا طالب وهو شابّ يدرس عند السيّد محمّد باقر وسلم علىٰ العجوز:

رفع العجوز رأسه وحدّق في الطالب الشابّ قبل أن يردّ:

ـ وعليك السلام.

ـ ماذا حصل؟

ـ مازلوا يتناقشون.. منذ السحر وحتىٰ الآن ونقاشهم لم ينتهِ. اذا رغبت بالاستماع فادخل.. هناك مراد علي ايضا.

تردد ميرزا طالب قليلاً قبل أن يقرر الدخول. فتح الباب بهدوء، وسلّم علىٰ أصدقائه بصوت خافت ثمّ جلس يصغي الىٰ الحوار.

ـ رأينا انه لا شيء سوىٰ كتاب الله وما ورد من الاخبار عن المعصومين يمكن أن تكون مصدراً، حتىٰ العقل هو الآخر لايمكن الاستناد اليه.

---

(١) الشهر التاسع من السنة الإيرانية.

كان السيّد محمّد باقر يهزّ رأسه وهو يصغي، فرفع رأسه قائلاً:

ـ حتىٰ لو كان الأمر واضحاً ولا يحتاج الىٰ دليل ولم يرد عن النبي والأئمة حوله رأي، أو كان العمل به عادياً بحيث نستنتج منه أن المعصومين يوافقونه بالرأي، فما هو الحكم في هذه المسألة؟

ـ اذا لم تكن هناك رواية تؤيّد ذلك فهو مرفوض.

ـ هل انت مع رأي أهل اللغة في ما يقولونه؟

ـ بالتأكيد.

ـ هل توجد رواية تأمرك بذلك؟

ـ كلا.

ـ هل تعمل بنصائح وأوامر الطبيب؟

ـ أجل.

ـ اين الرواية التي تفيد بوجوب العمل بنصائح الأطباء؟ .. بالتأكيد لا يوجد شيء من هذا القبيل.. ليس الطبيب وحده، المعمار، المهندس، النجار بل وسائر أهل الإختصاص؛ ومع ذلك فإنّنا نجد الناس يأخذون بآرائهم، لماذ؟ لأنّ العقل يحكم بذلك، بالرغم من عدم وجود رواية أو آية بخصوص هذا الموضوع.

سرتْ همهمة بين الحاضرين من الاخباريين، وعلّق أحدهم قائلاً:

ـ هذا الرجل من أهل السفطسة.. إنّه يخلط الفقه مع البناء.

وهتف آخر:

ـ بجدله هذا يريد أن يطفئ نور الحق.

ونهض رجل متوسط العمر يرتدي عباءة سوداء قائلا:

ـ لنذهب أيها الأصدقاء! هذا الرجل يجعل للعقل منزلة لاتضاهيها منزلة أخرىٰ، وقد سمعت ملاّ حسين قلي يقول: اذا خالف حكم العقل ماحكم به الشرع فإن حكم العقل مقدّم على حكم الشرع ـ نعوذ بالله. ياله من زمن؟!

وهكذا غادر الاخباريون المكان، وتلا ذلك دخول مشهدي كرم يحمل اقداح الشربت.

سأل ميرزا طالب:

ـ ماذا كانوا يقولون يا سيّدنا؟

ـ سأشرح لك المسألة فيما بعد يا بنيّ.

الأوّل من شوّال

كان السيّد محمّد باقر في المسجد؛ فوجّه خطابه إلىٰ امامقلي:

ـ كربلائي! أخبر الناس بأنّ اليوم هو الأول من شهر شوّال، وسنقيم صلاة العيد.

ـ لكن يا سيّدنا أخبرتنا ليلة أمس بأن يتسحر الناس ويصوموا.

ـ لقد جاء نفر عدول وشهدوا برؤية هلال العيد.

امر كربلائي امامقلي عدّة من الشباب بأن يخبروا الناس بذلك. ولم تمضِ مدّة حتىٰ جاء بعضهم يحمل كمية من التمر والحليب من منزل

الحاج غلام رضا البهبهاني ليوزّعه علىٰ أهل القريه الذين جاءوا لتأدية صلاة العيد.

انتهت مراسم الصلاة وانبرىٰ أحد الاخباريين يسأل السيّد محمّد باقر:

ـ بأي دليل أفطرتم؟

ـ لقد تيقّنت بعد شهادة عشرة عدول.

ـ ائتني برواية تثبت ذلك، ويقينك ينحصر في مورد خاص.

ـ امرٌ يدعو الىٰ الأسف حقاً يا أخي؛ فمع أنّ الروايات تؤيّد ثبوت الهلال بشهادة اثنين عدول، تأتي انت وتقول أين الرواية التي تثبت ذلك!

قطع الحاج شرف حديثه، مخاطباً السيّد:

ـ ارجو أن تلبي دعوتي لتناول طعام الغداء معاً، ولاتنسَ أنت تأتي بالعيال ايضاً.

ليس الحكيم رّباً

ـ السلام عليكم، كيف حالك يا ميرزا طاهر؟ سمعت بأنّك مريض فجئت لعيادتك.

اجاب ميرزا طاهر بصوت مرتعش:

ـ الحمد لله، يا سيّدنا، الأيّام تمضي بسرعة ولم يبق من الذين رافقوك في سفرك من النجف غيري.. لقد مضت الأعوام كالأيّام.. ثلاثون

سنة.. امامقلي توفّي قبل ثلاثة أعوام، الحاج قـربانعلي مـات فـي العـام الماضي، ويبدو أنّها نوبتي هذه المرّة.

ـ ماذا تقول يا ميرزا... ستتحسّن حالك باذن الله.

ـ لقد تعبت يا سيّدنا. مضت عشرة أيام وأنـا طـريح الفـراش، لا أستطيع حتى تحريك يدي، لقد أصبحت عبئاً علىٰ العيال.

ـ ماذا يقول الحكيم؟

ـ الحكيم ليس رباً، انه لا يملك غير «الترنجبين». ارجو أن تدعو الله لكي يأخذ امانته.. لقد مللت الحياة..

واختلطتْ كلماته بالنشيج.

ـ الله رحيم يا ميرزا.. أرحم من الوالدين.. والشفاء بيده سبحانه.

وانصرف السيّد محمّد باقر وهو يتمتم بالدعاء.

وتمضي الأيام، ويأتي مشهدي محسن ليخبر السيّد برحيل ميرزا طاهر من الدنيا.. فيسرع السيّد إلىٰ منزله لمواساة عياله.

ليتني ذهبْت

ـ انظر يا عبد الحسين مَنِ الطارق.

هتف السيّد محمّد باقر منادياً ابنه، وأسـرع عـبدالحسـين ليـفتح الباب، وجاء صوته يقول:

ـ بابا! رجل يسأل عنك.

ونهض السيّد متوجِّهاً نحو الباب.

ـ ماشاء الله.. أنت أين وبهبهان اين؟ لعلك أخطأت الطريق.. تفضّل.

دخل السيّد محسن وهو يتمتم: يا الله... يا الله.

ـ حسناً يا سيّد! كيف حالك؟

ـ ربّما تنسىٰ أصدقاءك بسرعة، أمّا أنا فلا أنسىٰ أبداً.

ـ مشاغل يا سيّد.. مشاغل.. ولكن قل لماذا أصبحت عجوزاً يا سيّد محسن.. غزاك الشيب و...

قاطعه السيّد محسن مبتسماً:

ـ ولكنك لم تبقَ شابّاً كعهدك يوم كنت طالباً تدرس الحكمة عند السيّد محمّد.

ـ نعم هذا منطق الأيّام. الجميع في سفر.. سفر ينتهي بنا الىٰ الموت.

ـ نعم كلُّنا في سفر.. أنا ايضا فكرت في نفسي ذات يوم.. إذا ماسُئلتُ يوم غد عمّا فعلت، فكيف سيكون جوابي؟ فإن قلت كنت أطلب العلم، سألوني: وماذا فعلت بعلمك؟ عندها أقف حائراً.. لهذا قلت أعود إلى بلدتي علّي أقدِّم خدمةً تنفعني يوم الحساب.

ـ نِعْمَ الرأي.. الناس بحاجة الىٰ أمثالك. عندما كنت في إصفهان سمعت الكثير عنك.. الناس يلهجون بذكرك.. وقد سمعت البعض يقول في مدرسة «چهارباغ»[1] ان السيّد محمّد باقر قام بعمل عظيم في هداية الاخباريين.

---

(١) الحدائق الأربع.

ـ استغفر الله.. من هو محمّد باقر لكي يهدي الناس ... الله وحده الهادي.. الله يهدي من يشاء.. نحن مجرّد وسائل.

ـ حسناً، ولكن كيف أقنعتهم؟

ـ الحقّ أنّهم اناس طيبون وبسطاء في نفس الوقت.. متعصبون للشريعة كثيراً.. وفي هذا كان منزلقهم.. غير أنّهم يقتنعون إذا واجههم أحد بحجة دامغة.. رأيهم مثلاً انه لا داعي لتقليد المجتهد.. وأن التقليد ينحصر بالامام وحده.. وهو غير ممكن؛ ذلك أنّ الاستفادة من الأخبار يحتاج إلى رجل مختصٍّ.

ويدخل في الأثناء محمّد علي الابن الاكبر للسيد محمّد باقر حاملاً أقداح الشربت والحلوىٰ:

ـ سلام عليكم.

ـ وعليكم السلام.. ماشاء الله. لقد كبرت كثيراً.

وسادت فترة صمت قصيرة قطعها السيّد محمّد باقر بقوله:

ـ ماهي أخبار النجف؟

ـ الأمور علىٰ مايرام... ولكن اسألني عن كربلاء لقد أصبحتْ وكراً للأخباريين وهم يفتون بحرمة دراسة أصول الفقه.

ـ عجيب.. لقد سمعت بذلك، ولكن ليس إلىٰ هذا الحدّ.

ـ من الافضل يا سيّدنا أن ترسل الىٰ كربلاء عدّة نسخ من كتابك «الاجتهاد والأخبار» فلعلّها تنفع هناك.

ـ ربّما ينفع الكتاب.. ولكن الأمر يحتاج الىٰ مقارعة في الميدان..

ليتني استطعت الذهاب.

وارتفع اذان الظهر، وينهض السيّد محمّد باقر قائلاً:

ـ سأذهب الىٰ المسجد، امّا انت فابق هنا لترتاح. المنزل منزلك... سأعود بسرعة.

ـ انا أيضاً سأذهب... لنذهب معاً.

وينطلقان معاً إلىٰ المسجد.

الحكم العجيب!

ـ الحمد لله.. أفاض الله عليكم بالنعم.

ـ لم تأكل جيداً يا سيّد! لعلّ الطعام لم يعجبك.

ـ بالعكس كان طعاماً طيباً، سلمتْ ايدي طهاته.

همس محمّد علي في اذن والده وهو يجمع الصحون:

ـ عندما ذهبت إلىٰ المسجد، جاءت امرأة (خيرالله) تطلب حضورك لعقد قران (عباس قلي ميراب) علىٰ ابنتها.

ـ ارأيت يا سيّد؟ الناس هنا في أمسّ الحاجة؛ فعباس قلي هذا كان متزوجاً من ابنة اخيه.

ـ مستحيل!!

ـ عندما يجهل الناس فإنّهم يفعلون مايشاءون. لكني أصدرت أمراً بانفصالهما فوراً.

ـ وهل استجابوا؟

ـ نعم، والحمد لله.

ـ الحمد لله.. ولوكانوا يرون أن تقليد المجتهد ليس ضرورياً لبقوا علىٰ حماقاتهم، كلٌّ يطبل بطبله.

– وهل سمعتَ بأنّ أحد القضاة حكم بدفن رجل عاد من السفر بعد أن شهد عنده البعض أثناء غياب الرجل بأنّه قد مات في سفره، فلما عاد أمر بدفنه!

ـ دفنوه حيّا؟!

ـ نعم.. القاضي حكم بدفنه باعتباره ميّتاً، طبقاً لإفادة الشهود، وإنّ الشرع يوجب دفن الموتىٰ؛ فمن الواجب دفنه اذن! انظر ماذا فعلت بهم الأخبار!

ـ لكل حقل من العلوم رجاله الذين يختصّون به، وليس كل من حمل المجرفة يصبح فلّاحاً.

ـ حتّىٰ الفلاحة والزراعة تحتاج إلىٰ من يخبر شؤونها ويعرف اصولها وفروعها.

ـ حقاً ينبغي عليّ أن أعود الىٰ إصفهان.

ـ ماذا؟ هل مللتنا بهذه السرعة؟

ـ أستغفرالله.

ـ اذن فاقضِ ليلتك هنا.. والسفر في الصباح أفضل.

لم اقل شيئاً

ـ ماذا حصل يا سيّدنا!.. ارجوك أن تبقىٰ.

كان خواجه عزيز كلانتر[١] يتضرّع للسيد ولكن دون جدوىٰ، فالسيد راح يشقّ طريقه عائداً إلىٰ المنزل غير آبهٍ به.

قال مشهدي شعبان حمامي: لعل السيّد متوعّك والّا فكيف يترك الناس دون أن يصلّي بهم صلاة العصر.

اسرع ميرزا[٢] يحيىٰ العطار نحو خواجه عزيز:

ـ دعه لعلّه مريض.. ما معنىٰ إلحاحك هذا؟

أجاب خواجه عزيز منزعجاً بعض الشيء:

ـ ماذا تقول؟

تمتم الحاج غلام رضا قلقاً:

ـ لعلك أسمعته شيئاً أغضبه.

ـ لم أقل شيئاً.

ـ كلّا لقد رأيتك تهمس في أذنه.

ـ لا شيء. قلت له انظر ماذا فعلت أوامري؟ كيف حشّدت صفوف المصلّين خلفك؟.

نادىٰ الحاج غلام رضا:

ـ ملّا مرادا تقدم لصلاة العصر. الناس ينتظرون. وأردف متمتماً:

---

(١) مفوض الشرطة.

(٢) يطلق الإيرانيون ميرزا علىٰ من يولد لأم تنتسب الى بنى‌هاشم دون الأب.

ـ لقد أغضب خواجه عزيز السيّد بكلامه. السيّد ليس مثل الآخرين لكي تسرّه كثرة الناس.

وارتفع صوت مشهدي شعبان للأذان والإقامة.

كان الوقت أصيلاً، عندما انطلق خواجه عزيز كلانتر برفقه الحاج غلام رضا وبعض رجال القرية الىٰ منزل السيّد محمّد باقر من أجل دعوته لصلاة المغرب في المسجد.

قال السيّد محمّد باقر بصوت هادئ:

ـ بحمد لله يوجد في بهبهان من يقوم مقامي في إمامة الناس وإفتائهم، واشعُر بأنّ مهمّتي قد انتهت في هذا المكان.. وينبغي عليَّ الرحيل.

قال خواجه عزيز حزيناً:

ـ مازلت غاضباً عليَّ يا سيّدنا؟

أجاب السيّد ملاطفاً:

ـ كل ما وقع مضىٰ وانقضىٰ. لقد عزمت علىٰ السفر والعودة إلىٰ النجف، وكلّ ما أرجوه هو الدعاء.

الفصل الرابع



مسجد المحلة

ـ لماذا؟ غادرنا النجف وجئنا إلىٰ كربلاء يا أبي؟

ـ ألا تحبّ هذه المدينة؟

ـ لم أقصد ذلك، ولكننا عزمنا السفر إلى النجف عندما كنّا في بهبهان.

ـ بنيّ أنا انشد العلم ولم أجد منيتي هناك، فجئت إلىٰ كربلاء علّي أجد احداً اتعلّم منه شيئاً.

ـ لن تجد في هذه المدينة ماتريده يا أبي وفيها من يحرّم دراسة أصول الفقه.

ـ وإذن ستكون مهمّتنا أصعب، علينا أن نقارع هذه الأفكار المنحرفة.

ـ وهل هذا ممكن؟

ـ نعم، لقد مرّ علىٰ حضوري درس الشيخ يوسف البحراني خمسة أيّام فقط ووجدت لدىٰ تلاميذه رغبة في دراسة الأصول، وها أنا أدرّسهم

ذلك في السرداب كما ترىٰ.

هتف عبد الحسين:

ـ ضيوف ينتظرون في الباب يا أبي.

أسرع أخوه محمّد علي لاستقبالهم.. دخل رجال متوسطو الأعمار وأخذوا أماكنهم في الحجرة الطينية:

ـ أهل المحلّة يا سيّدنا يتمنّون منكم إمامتهم في الصلاة.

ـ وإمام المسجد؟

ـ رحمه الله.

ـ رحمه الله.. إذن لا مجال للتأخّر.

ظِلال الرعب

ـ إخواني! يصادف اليوم الخامس عشر من شعبان ذكرىٰ الميلاد المبارك لصاحب العصر ـ عجل الله تعالى فرجه ـ وما أجمل أن نتحدث عن هذا اليوم العظيم.

في البدء ينبغي أن ندرك أنّ من وراء غيبته مصلحة آلهية.. وإذن فلا يجدر بأحد أن يقول لماذا لايظهر الإمام. هو وحده الذي يعرف الوقت المناسب. ولقد جاء في الروايات أنه يلبس الخشن من الثياب، ويأكل الجشب من الطعام، وغيبته لطف من ألطاف الله...

سرتْ همهمة بين الحاضرين، كلٌ يعلِّق مايشاء له من القول، ونزل

السيّد محمّد باقر من المنبر نادماً علىٰ تسرّعه.

مال ميرزا حسن العطّار علىٰ رجل يجلس الىٰ جانبه وهمس بعصبية:

ـ لقد أخطأنا في دعوة هذا الرجل.. مسجد بلا إمام أفضل من عدوّ للإمام.

وقال عبدالرضا البقّال ساخراً:

ـ هذا الرجل لا يحبّ للإمام الظهور؛ لأنّه يخشىٰ علىٰ زعامته من الزوال.

فيما علّق ميرزا حبيب الله؛ وكان ممن اشترك في دعوة السيّد لإمامة المسجد، بأسف:

ـ يأكلون من نعم صاحب الزمان ويشهرون سيوفهم عليه! يا له من زمان عجيب!.

أدرك السيّد محمّد باقر أمواج الغضب بين الحاضرين، فشعر بالندم علىٰ تسرعه؛ ولذا قفل عائداً الىٰ المنزل.

لم تمض سوىٰ دقائق حتىٰ دوّت طرقات عنيفة علىٰ الباب كسرت الصمت المخيِّم علىٰ المنزل.

ـ من الطارق؟

ـ انا محمّد حسين مسگر الذي يفرش سجادتك للصلاة كلّ يوم.

فتح السيّد محمّد باقر الباب، وشعر بالرعب لدىٰ رؤيته محمّد حسين بملامحه الغاضبة المخيفة.

فوجئ السيّد بالرجل يرمي السجّادة في وجهه صارخاً:

ـ هاك سجّادتك أيّها المرتدّ.. صلاتي خلفك كلّها باطل في باطل.

لم يداعب النوم أجفان السيّد محمّد باقر تلك الليلة، ولم يـجد له سبيلا اليه.

لم يكن يشعر بالخوف بمثل تلك الليلة، كان يترقّب هجوم بعض المتعصّبين علىٰ منزله بين لحظة وأخرىٰ.

فجأة ارتفع صوت طرقات علىٰ الباب.

هتف السيّد برعب:

ـ من يكون الطارق في هذه الساعة المتأخّرة من الليل؟

خرج إلىٰ ساحة البيت:

ـ من الطارق؟!

ـ أنا محمّد حسين مسگر! أرجوك يا سيّدي افتح الباب!

ـ وماذا تريد منّي؟ ألم يكفك مافعلتَ بي؟

ـ لقد أخطأتُ وجئتك معتذراً.

فتح السيّد الباب بحذر، وألقىٰ الرجل بنفسه علىٰ قدمي السيّد يريد أن يقبّلهما.

ـ استغفرالله! ماذا تفعل؟ انهض يا أخي.

ـ لا تلُمني يا سيّدي.. لم أكد أغفو هذه الليلة حتىٰ رأيت صاحب الزمان يعنّفني علىٰ ما فعلت؛ ولذا جئتك مسرعاً لتعفو عنّي.

ـ عفا الله عنّا جميعاً.

اذن نبقىٰ

ـ سوف نشدّ الرِّحال مرّة أخرىٰ يا أمّي..

تمتم محمّد علي بعد أن اجتمع شمل الأسرة لتناول طعام الافطار.

اجابت الأمّ وقد بدتْ منكسرة تماماً:

ـ هل مللت كربلاء بهذه السرعة؟

ـ وكيف يملّ المرء مدينة الحسين؟.. ولكنّها الأيام يا أمي؟

كان السيّد محمّد باقر يصغي، فالتفت الىٰ زوجته وخاطبها برقّة:

ـ لن نذهب.. لن نغادر كربلاء أبداً.

فغر محمّد علي فاه دهشة:

ـ ولكن يا أبي أنت أمرتني بأن أعدّ العدّة للسفر.

ـ نعم هذا صحيح.

ـ وإذن ما الذي جرىٰ؟

ـ يا بني! لقد رأيت في عالم الرؤيا سيّدي الحسين عـليه السـلام يخاطبني معاتباً: لمَ تفارقني؟ لست راضياً عنك إن فعلت ذلك.

لذا عزمت علىٰ البقاء.

نداء البداية

هتف محمّد علي متسائلا:

ـ بكّرت يا أبي بالذهاب؟

ـ لديّ مهمّة.. يتوّجب عليَّ زيارة الشيخ يوسف.

ـ ولكن يا أبي.. ألا تخشىٰ أن يتجاسر عليك مريدوه!.. الجوّ ينذر بالإخطار.

ـ ليس هناك وقت للتفكير... أنا في الحقيقة مأمورٌ بذلك.

ـ دعني أرافقك يا أبي.

ـ لا داعي لذلك.. لن يدعني الحسين وحيداً.. وسوف ينصرني علىٰ هؤلاء الاخباريين. سأحاورهم بالتي هي أحسن.

وهكذا بدأ فصْل من الجدل بين السيّد محمّد باقر وبين الشيخ يوسف البحراني.

الحاج كريم

هتف الحاج كريم مخاطباً المسؤول عن استلام أحذية الزائرين في الحرم المقدّس:

ـ أتعرف ذلك الرجل؟

ـ من؟

أشار الحاج كريم إلى رجل متوسط العمر.

ـ ليس كثيراً.. ولكن سمعت ملّا عليّ الواعظي يذكره بخير، ويقول إنّه من الأخيار، وهو علىٰ مايظهر صهر المرحوم السيّد محمّد الطباطبائي.

ـ يبدو أنّه من العلماء.

ـ وكيف عرفت؟

ـ إنّه دائم البحث مع الشيخ يوسف البحراني في الحرم، ويطول بهما البحث من بعد صلاة المغرب والعشاء. وحتىٰ آخر الليل، فاذا أغلقنا ابواب الحرم انتقلا الىٰ الرواق فاذا اغلقنا بوابات الأروقة انتقلا الىٰ الصحن، فاذا اغلقنا أبواب الصحن انطلقا خارج الصحن وبعدها نـذهب الىٰ مـنازلنا.. وعندما نأتي في الصباح لفتح أبواب الصحن نجدهما مشغولين بالجدل.. فاذا ارتفع أذان الفجر انصرف الشيخ لأداء الصلاة ثمّ إلىٰ المنزل؛ أما هذا الرجل فكما ترىٰ يبقىٰ واقفاً هنا بعد الصلاة.

منذ اليوم

تناول محمّد علي آخر لقمة من غدائه، وقال:

ـ منذ مدّة وأنت تعود متأخّراً يا أبي، وربّما بقيت حـتىٰ الصـباح خارج المنزل.. أما يزال بحثك مع الشيخ مستمراً؟

ـ نعم.

ـ ولكن يا أبي إن الشيخ ـ علىٰ ما يبدو ـ لايريد الإذعان للحق؛ وإلّا فما معنىٰ ذلك؟

ـ نعم انا اظن بأن البحث كان كافياً، ولكن يبدو أنّه علىٰ علم بـما يدور في أذهان الاخباريين من تعصّب، لأنّه اخباري حتىٰ النخاع. غير أنّي أظنّ ايضاً بأن الشيخ قد اقتنع بالحجج والادلة والبراهين التي سقتها إليه.

ـ ولِمَ لا يُظهر ذلك؟

ـ إنّه يخشىٰ الجهّال.

ـ واذن فما العمل؟

ـ سوف ترىٰ ثمار البحث الطويل معه قريباً.

ـ متىٰ؟

ـ اليوم، وفي الصحن الشريف عند انتهاء درس الشيخ يوسف.

ـ دعني آتي معك يا أبي.

ـ اذا أحببت فلا مانع عندي.

ـ وانا ايضاً يا أبي.

هتف عبد الحسين بذلك.

ـ وانت يا بنيّ يمكنك المجيء.

ماذا تريد يا رجل؟

الوقت أول العصر، والسيّد محمّد باقر يدخل الصحن ومعه ولداه.

سأل محمّد علي:

ـ ماذا تنوي أن تفعل يا أبي؟

ـ لا شيء فعلاً، ننتظر في هذا المكان.

ـ ثمّ ماذا؟

ـ الىٰ ان ينتهي درس الشيخ يوسف ويغادر الطلبة المكان.. اذهب يا عبد الحسين والقِ نظرة.. ربّما انتهىٰ الدرس الآن.

انطلق عبد الحسين إلىٰ الحرم المقدّس وسرعان ماعاد ليقول لاهثاً:

ـ لقد انتهىٰ الدرس يا أبي والطلبة يغادرون المكان.

نهض السيّد محمّد باقر من مكانه ونادىٰ بأعلىٰ صوته:

ـ ايها الناس أنا حجة الله عليكم.

التفت الناس إلىٰ جهة الصوت مندهشين، وسرعان ماتحلّقوا حوله مستطلعين.

هتف أحد الطلبة:

ـ ماذا تريد يا رجل؟

ـ لا شيء.. أريد أن يخلي الشيخ يوسف كرسي الدرس لي ويأمر تلاميذه بأن يدرسوا عندي.

قال شيخ طاعن السن متأسِّفاً:

ـ جعل الله عاقبتك إلىٰ خير.

وهمس طالب في أذن رفيقه:

ـ لننصرف.. لقد حسبته رجلاً عاقلاً.. إنّه لا يكتفي بكرسي الدرس بل يريد التلاميذ أيضاً!

تمتم رجل متوسط العمر بانَ علىٰ جبينه أثر السجود، وهو يـرفع رأسه الىٰ السماء بالدعاء:

ـ الهي ارحمنا من شرور أنفسنا الأمّارة بالسوء، ماذا فعل حبّ الجاه والرياسة والحسد بالناس.

يوسف يبعث سلامه

منزل الشيخ يوسف البحراني يموج بالتلاميذ وقد لاح بينهم سـيّد مهدي البروجردي وميرزا محمّد مهدي الشهرستاني.

قال سيّد مهدي لأستاذه:

ـ أسمعت بالذي قاله السيّد محمّد باقر في الصحن؟

ابتسم الشيخ يوسف:

ـ وماذا قال؟

ـ إنّه حجّة الله علينا.

ـ صدق الرجل، وبماذا أجبتم؟

ـ تفوّه البعض بكلمات لا معنىٰ لها، وسأله السيّد علي:

ـ ماذا تريد؟

ـ ما الذي كان يريده؟

ـ قال إنّه يطلب كرسي الشيخ يوسف وأن يأمـر الشـيخ تـلاميذه بالدراسة عنده.

ـ انت يا سيّد مهدي وأنت يا سيّد محمد أبرز تلاميذي.. انطلقا إليه وقولا؛ من الآن سيكون هو الأستاذ، ثمّ التفت الىٰ جموع الطلبة هاتفاً:

ـ ايها الأعزاء سيكون استاذكم.

استنكر احدهم بعصبية:

ـ اتنهزم من الميدان بهذه السرعة؟!، باستطاعتنا طرده من كربلاء لو أمرتنا بذلك.

ـ انني أقوم بما اعتبره واجباً، انه رجل عالم، وهو أهل للتدريس، والواجب يحتمّ ذلك كما قلت، واذن فبادروا إليه واستفيدوا من علمه.

ـ ماذا تقول أيّها السيّد؟

ـ نعم كما قلت، لاينبغي الانسحاب من الميدان، عندما ينسحب المرء فإنّه بذلك يوفّر للخصم فرصة ذهبية في الانتصار عليه، ويشعره بالقوّة والثقة.

سأل ميرزا كمال الرشتي مندهشاً:

ـ وماذا حصل يا سيّد تقي؟ أنا لم أحضر الدرس فهل وقع حادث ما؟

ـ حادث؟! قل كارثة، فهذا الرجل الذي قدم من بهبهان إلىٰ كربلاء ثمّ تلطّف عليه الشيخ يوسف بكرسي التدريس، قد وصلت به الجرأة لأن يفتي بحرمة حضور دروس الشيخ يوسف أو الصلاة خلفه.. كم وددت أن

اردّ له الصاع صاعين وأن نطرده من كربلاء شرّ طردة.

وفي الأثناء يدخل الشيخ يوسف وقطرات الماء تتساقط من وجهه فقد توضأ توّاً.

بادر الرجلان الىٰ السلام عليه واستقباله.. بادره سيّد تقي قائلاً:

ـ لقد سبق وأن قلت يا شيخ: ليس من الصحيح أن ينسحب المرء من الميدان.

قاطعه الشيخ مبتسماً:

ـ لقد سمعت كل ماقلته وأنا اتوضأ، لماذا تتحدث بصوت عال حتىٰ أن الجيران يسمعونك... الحق أن السيّد محمّد باقر رجل رفيع المنزلة.

ـ من لايشكر المعروف ثمّ يحرّم الصلاة خلف من أحسن اليه كيف يكون رفيعاً؟!

ـ ان له دليله على ذلك، لقد تحدثت مع السيّد كثيراً فلم ألمس عنده اتباعاً للهوىٰ، وفتواه لها مايبرّرها.

سأل ميرزا كمال الذي ظلّ ساكتاً طوال تلك المدّة:

ـ ماذا تقول يا مولانا هل نتتلمذ عنده؟

قال سيّد تقي غاضباً:

ـ بل قل هل تصحّ الصلاة خلفه؟

ـ من جانبي فأنا أجيز تلاميذي في حضور درسه والصلاة خلفه.

ـ ولكن يا أستاذنا إنّه يحرّم الصلاة خلفك.

ـ لقد بيّن حكمه الشرعي، وأنا أيضاً بيّنت حكمي الشرعي، وكلٌّ

قام بواجبه.

التّهاني

عاد السيّد محمّد باقر الىٰ منزله بعد انتهاء درسه، وفي الطريق سأله عبد الحسين:

ـ ايتوجّب عليّ أن اقدّم التهاني يا أبي.

ـ لماذا؟

ـ بمناسبة هذا الإنتصار.

ـ وهل كانت هناك حرب، أو منتصر؟!

ـ ماذا تقول يا أبي، لقد رأيت بنفسي اليوم سيّد محمّد مهدي الشهرستاني، أبرز تلاميذ الشيخ يوسف يقول عنك بأنك علّامة، بل أن جميع التلاميذ يعتقدون بذلك ايضاً.

ـ لافرق بين اداء الواجب والنصر، ثمّ هل تتصور أن ماحصل تمّ علىٰ يدي؟

ـ بالتأكيد، إنّها ثمرة تلك الليالي الطويلة من البحث.

ـ انت مخطئ تماماً يا بني، ان المئات من امثال محمّد باقر لا يمكنهم أن يقوموا بذلك. إنّ ما تمّ كان بتوفيق اللّه ومساندة الشيخ يوسف نفسه، بل قل ان الله وحده وراء ذلك.

ـ انت تتواضع جداً يا أبي، والله سبحانه يعلم بما قمت به من عمل

جليل.

ـ بنيّ إذا كان هناك مايستوجب تقديم التهاني، فإن ذلك من نصيب الشيخ يوسف الذي تسامىٰ علىٰ اهوائه ولم يغرّه الكرسي وغيره من شؤون الدنيا.

الطاعون

وقعت عينا الحاج كريم الخادم في الحرم الحسيني علىٰ جنازة جديدة فتمتم بحزن:

ـ إنا لله وانا اليه راجعون..

وأردف وهو يخاطب صاحبه:

ـ انظر ماذا يفعل المرض.. هذه هي الجنازة الخامسة التي تصل هنا.

ـ بل السادسة يا حاج.

ـ وما الفرق؟ انه الطاعون. سمعت ميرزا محمّد الحكيم يقول عن أعراضه: يبدأ بألم في الرأس ويعقبه حمّىٰ ورجفة شديدة، ثمّ هذيان، وأخيراً يظهر انتفاخ عند الفخذ أو الابط أو الرقبة بحجم البرتقالة. ومن حسن الحظ أن هذا الطاعون يختلف عن الطاعون الأسود، والاّ لكانت الفاجعة أكبر.

ـ لمن هذه الجنازة؟ أرى كثيراً من العلماء خلفها!

ـ أظنّها جنازة الشيخ يوسف، فقد سمعت ملّا إبراهيم يقول أنّه مات.

ـ اذن هيّا للصلاة عليه!

وأسرع الرجلان نحو المكان..

سأل الحاج كريم:

ـ ماذا تنتظرون؟ ألا تصلّون عليه؟

أجاب ملّا إبراهيم:

ـ لقد أوصىٰ بأن يقوم السيّد محمّد باقر البهبهاني بالصلاة عليه.

وفي الأثناء ارتفعت أصوات تُعلن عن قدوم السيّد محمّد باقر الذي بدأ صلاته علىٰ الفور.

رؤىٰ مشرقة

كان اليوم الخامس عشر من شعبان وبيت السيّد محمّد باقر يغصّ بتلامذته.

وتحدّث السيّد في هذه المناسبة:

ـ تزوّدوا بالعلم ماستطعتم، اليوم يصادف ذكرى الميلاد المبارك لصاحب الزمان الذي لايفتأ يراقب أعمالنا، وعليه فلا تؤجلوا عمل اليوم الىٰ غد، ولا تخافوا فقراً، واسعوا في عمل الخير.

سأل السيّد مهدي بروجردي:

ـ يا سيّدنا وكيف يراقب صاحب الزمان أعمالنا؟

أجاب السيّد:

ـ قبل عدّة أيام تشرفت بزيارة النجف والتقيت بعض اعيانها، وفي طليعتهم الشيخ مهدي الفتوني وقد سألني سؤالاً لابأس بذكره لتعمّ الفائدة؛ قال: لو أنّ أحداً سافر إلىٰ مدينة ثمّ نوىٰ الإقامة فيها عشرة أيام فهل يجوز له أن يتنقّل في البساتين القريبة والتي تعدّ عرفاً تابعة لها؟

أجاب أحد الطلبة:

ـ بالطبع لايمكنه ذلك لأنّه نوىٰ الإقامة في المدينة.

ـ اتفاقا، فالشيخ محمّد مهدي الفتوني أيضاً يرىٰ هذا الرأي، فما قولك؟

ـ لابدّ من التأمّل ولعل الحقّ مع الفتوني.

ـ امّا أنا فقد قلت للشيخ مهدي أنّ هذا الشخص لايصحّ له حتى مغادرة المدينة ولو خطوة واحدة.

تساءل سيّد علي الطباطبائي:

ـ وهل أمكنكم إثبات ذلك للفتوني!

ـ إثبات! لقد بقيت أبحث معه المسألة ساعات من الليل وبقي كلٌّ منّا علىٰ رأيه إلىٰ أنْ حُلّت العقدة على يد سيّد محمّد باقر المازندراني.

ـ وكيف؟!

ـ جاءنا صباحاً ولم يكن مطّلعاً علىٰ القضية أبداً، وقال: رأيت ـ فيما يرىٰ النائم ـ صاحب الزمان (ع) وخاطبني: يا باقر! «قل للفتوني الحقّ في المسألة مع الباقر»... وهكذا تراجع الفتوني عن رأيه.

قال سيّد علي:

– أمر عجيب! هل يهتمّ بنا الإمام الىٰ هذا الحدّ؟

مسح السيّد محمّد باقر علىٰ لحيته وقال بخشوع:

ـ والأعجب من هذا أنّ ارواح الأخيار هي الأخرىٰ تراقب أعمالنا، فقد كنت مشغولاً بكتابة تعليقات علىٰ كتاب المدارك، وفي بعض الموارد كنت أردّ علىٰ بعض آراء المؤلف، وعندما أو شك عملي علىٰ الإنتهاء رأيت تلك الليلة صاحب المدارك فقلت له خجِلاً: لقد أسأت الأدب يامولاي في كتابة بعض الردود، فإن رأيتم حذْفها حذفتُها، فأجاب: أنا راضٍ عنك رضي الله عنك.

وعلىٰ هذا، فعندما يكون صاحب المدارك راضياً فان الأئمة – وبلا شك – راضون ايضاً.

همس محمّد علي: حان وقت الأذان.

نهض الأستاذ للوضوء، وبعدها انطلق الىٰ الحرم بصحبة تلاميذه.

هاجس الغد

أدّىٰ التلاميذ الصلاة وعادوا إلىٰ منازلهم.. ولم يبق أحد سوىٰ محمّد علي، وعبد الحسين وسيّد علي الطباطبائي الذي تزوّج أخت عبد الحسين حديثاً، فعادوا مع السيّد الىٰ البيت. سأل سيّد علي:

ـ لقد مضتْ مدّة وميرزا ابوالقاسم لا يحضر الدروس، فهل غادر كربلاء؟

ـ أجل، وعلىٰ ماذكر سيّد أفضل: جاء من إيران منذ مدّة قصيرة إلىٰ كربلاء، ثمّ غادرها الىٰ جابلق، ومن جابلق الىٰ قلعة بابو ثـمّ رحـل إلىٰ شيراز، ومنها إلىٰ إصفهان، واستقر به المطاف في قم، واذن فـبامكانك أن تدعوه الآن بالقمي!

قال عبد الحسين وهو يتأمّل أباه بإعجاب.

ـ لقد كانت الدنيا عنك مدبرة ثمّ اقبلتْ عليك من كل جانب ومـا تزال يا أبي علىٰ ثيابك الرثّة هذه؟ الا تستبدلها بثياب جديدة؟

قطّب الأب حاجبيه وتظاهر بعدم الإصغاء.

ـ أوصتني أمّك بأن نبتاع قليلاً من اللبن.

قال عبد الحسين عائداً للموضوع من زاوية أخرىٰ:

ـ إن بدنك يا أبي لا يحتمل ماتقوم به من صلاة مستمرة وصـيام متواصل. ألم يحِن الوقت بعد لكي تستريح من صلاة الاسـتئجار؟ ومـا جدوىٰ ذلك وأنت تقبض أثمانها ثمّ توزّعها على تلاميذك؟ ألم يحن الوقت لكي تلتفت لنفسك؟

انحنىٰ السيّد والتقط حجراً من وسط الطريق ثمّ رمىٰ به جانباً لكي لايعثر به أحد. قال:

ـ أنا في الحقيقة لا أفكّر بأحد سوىٰ نفسي، واظن أنّ الصيام نيابةً عن الموتىٰ ثمّ توزيع ثمنه علىٰ البائسين ممّن لايقدرون علىٰ شراء لقمة

طعام يتبلّغون بها من الجوع ليس بعيداً عن الاهتمام بالنفس. أنا أفكر في غدي. ومستقبلي الحقيقي هو الآخرة، وما تنفقوا من شيء تجدوه عند الله... يبدو أننا وصلنا دكان السيّد حيدر... اذهب واشتر لنا قليلاً من اللبن، فلدينا ضيوف.. أختك وزوجها.



الفصل الخامس

ميرزا شمس الدين

كان السيّد مهدي الطباطبائي البروجردي[1] وميرزا محمّد المجلسي الشهرستاني، والسيّد علي الطباطبائي وغيرهم من التلاميذ. جالسين في منزل الأستاذ منتظرين قدومه، قال سيّد مهدي:

ـ أتدرون لماذا أرسل وراءنا الاستاذ؟

أراد محمّد مهدي أن يعقّب علىٰ السؤال، ولكن السيّد محمّد باقر كان قد حضر، فهبّ التلاميذ لاستقباله.

ـ سلام عليكم.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله.

ـ ابنائي الأعزّاء لقد أرسلت وراءكم لأقول لكم انني قد أصبحت شيخاً مسنّاً، عاجزاً عن إلقاء الدروس، بل وحتىٰ المطالعة الكثيرة، ولذا رأيت أن أعهد اليكم ببعض الأمور ليخفف شيئاً من اعبائي.

ـ يعني أنّك ستوقف دروسك.

---

(١) عرف ببحر العلم فيما بعد ويعدّ من مشاهير العلماء في عصره، أمضىٰ عامين في الحرمين الشريفين في تدريس الفقه علىٰ المذاهب الأربعة، ويجيب علىٰ مسائلها المستعصية، الأمر الذي حيّر فيه علماء الحجاز، حتى قال بعضهم «إذا كان الشيعة صادقون في ما يدّعون من ظهور المهدي صاحب الزمان فإنّه لن يكون سوىٰ هذا الرجل».

ـ تقريباً.. سأقرأ كل يوم سطراً واحداً من شرح اللمعة للتبرك فقط.

ـ شرح اللمعة فقط.

ـ نعم، وعليك يا سيّد مهدي أن تنتقل الىٰ النجف وتدرس هناك، فيما يبقىٰ ميرزا محمّد مهدي، وسيّد علي مع بعض اخوانهما في ادارة الأمور هنا.

سأل سيّد مهدي:

ـ واين ستكون دروس شرح اللمعة؟

ـ في هذا البيت أوّل الصباح.. والآن انطلقوا واستعدّوا للتدريس.

سأل محمّد علي أباه، بعد أن غادر التلاميذ المنزل:

ـ واذن فقد أوقفت كلّ شيء.

ـ كلاّ يا ولدي .. رأيي أن ينبري الشباب للتدريس لكي أتفرّغ لإدارة الحوزة، كما أن مستواهم العلمي جيد، لقد اطّلعت قبل أيام علىٰ كتاب من تأليف الميرزا القمّي تحت عنوان «قوانين الأصول»، وقد اعجبني للغاية، ولاتنسَ ابن خالك سيّد مهدي لقد أصبح عالماً، وسيّد علي زوج اختك هو الآخر قد أضحىٰ فقيهاً كبيراً، وأنت أيضاً لم تعد بحاجة إلىٰ أستاذ... وأنا كما ترىٰ اصبحت علىٰ مشارف النهاية. وقد آن لي أن اجلس وأراجع ماكتبت، فبعضه يحتاج إلىٰ مراجعة وإصلاح حتىٰ لا يكون سبباً في انحراف البعض.

ـ ماتزال في أحسن حال يا أبي وليس هذا وقت مثل هذا الكلام.

ـ لاتجامل، كل انسانٍ وله أجَله، وها أنا قد اصبحت شيخاً ابنه يبلغ

الخمسين من الأعوام. أرجو أن تحضر لي الكتب.

ـ إنّها جميعا في هذا الصندوق وهي تربو علىٰ علىٰ السبعين مابين كتاب ورسالة.

ـ لقد أصلحت بعضها، وماعليك إلاّ أن تقرأ عناوينها لأعرف ما إذا تحتاج الىٰ اصلاح أم لا.

فتح محمّد علي الصندوق وبدأ باستخراج الكتب.

ـ وهذا الصندوق يا أبي يحتاج إلىٰ إصلاح ايضاً.

وراح الابن يقرأ عناوين الكتب:

ـ شرح مفاتيح الفقه للفيض الكاشاني من كتاب الطهارة الىٰ الخمس وهو يقع في ثمانية اجزاء، وحاشية علىٰ مفاتيح الفقه، وحاشية علىٰ ديباجة الكتاب نفسه.

ـ لقد أنجزت إصلاحها.

ـ الفوائد الحائرية في فصول الفقه.

ـ لقد راجعت اكثره.

ـ حاشية علىٰ المدارك من كتاب الطهارة الىٰ آخر الصلاة...

ـ ضَعْ شرح الإرشاد جانباً إذ ينبغي مراجعته.

ـ أسمعُ طرقاً علىٰ الباب يا أبي.

ـ استمر في عملك، سأفتح الباب.

نهض السيّد وبيده قلمه واتّجه نحو الباب.

ـ من؟ ميرزا شمس الدين؟ أهلاً بك!

ـ سلام علىٰ الأستاذ.. بالباب وفدٌ قدِم من قبل ملك إيران.

ـ ماذا يريدون؟

وانبرىٰ أحد اعضاء الوفد مخاطباً باحترام:

ـ السلام عليكم.

وأردف وهو يشير إلىٰ آخر بأن يتقدّم إلىٰ السيّد.

ـ هذه هدية ملكية من لدن الملك محمّد خان القاجار وهو يبلّغكم تحياته. تأمّل يا سيّدي إنّه مصحف فريد جداً تزيّنه الأحجار الكريمة فزادته روعة وجمالاً.. والخطوط مكتوبة بماء الذهب.

ـ يا أبنائي لمَ تضَعون المصاحف في الصناديق بعيداً عن الناس وكان الأَولىٰ بكم أن تبيعوا هذه الأحجار وتوزّعوا أموالها علىٰ الفقراء والمحتاجين.

ـ ماذا نفعل يا سيّدي الآن؟

ـ يبقىٰ المصحف لدى حامله يقرأ به كلام الله.. انصرفوا في أمان الله.

وعاد السيّد بعد أن أغلق وراءه الباب.

ـ من كانوا يا أبي؟

ـ وفد من قبل ملك إيران، جاءوا بهدية.

ـ وماذا كانت الهدية؟

ـ مصحف مرصّع بالأحجار الكريمة والذهب.. ضلال يالك من ضلال.. قالوا إنّها ترفع من منزلته وشأنه وتُزيده قيمة الىٰ قيمته.

ـ وأين هو؟

ـ لدىٰ الوفد.

ـ لم تقبله؟

ـ نعم لديّ مصحف أتلو فيه آيات الله. قلت لهم ليبق لدى حامله يقرأ فيه.. والآن هيّا الىٰ العمل.

ـ حاشية على الوافي وحاشية على الكافي، والتهذيب وشرح القواعد، والمسالك.

ـ ضعها جانباً. أعني حاشية المسالك.

ـ الإجتهاد والأخبار ورسائل في وجوب التقليد في زمان الغيبة، ثمّ رسالة في استحالة رؤية الله. أليست هذه متن المناظرة بينك وبين عالم من أهل السنة يا أبي؟

ـ نعم.

ـ رسالة في الجبر والاختيار وأخرى في الاستصحاب، والبراءة.

ـ ضعهما جانباً. لابدّ من مراجعتهما.

ـ لقد ارتفع الأذان.

ـ إذن. انهض للصلاة، الناس ينتظرون.

عد بسرعة هذه الليلة

مرّت الأيّام الأخيرة لشهريور[1]. كان السيّد محمّد باقر مستغرقاً في المطالعة، وزوجته مشغولة بخياطة ثوب قديم. قالت:

ـ ألا تذهب الىٰ بهبهان؟

---

(١) الشهر السادس من السنة الإيرانية.

ـ بهبهان في هذه الأيام ... هل اشتقت إلىٰ أقاربك؟

ـ تراودني أحلام مخيفة.

ـ لاتخافي ـ ألم تصلنا أخبار طيبة قبل أيّام؟

وأردف وهو ينظر في إحدىٰ الجهات:

ـ من تكون تلك المرأة؟

ـ من؟ لاتوجد امرأة هناك.

ـ تلك التي ترتدي ثوباً مورّداً.

ـ ماذا تقول؟ تلك عروسنا زوجة عبد الحسين... انك تستغرق بالمطالعة حتى تنسى عروسك ايضاً... سأنهض لإعداد العشاء... حقاً عُدْ بسرعة هذه الليلة، فلدينا ضيوف.

ـ من؟

ـ ابنتك وزوجها.

ـ إنهم ليسوا ضيوفاً... حقاً أخبري عبد الحسين بأن يأتي.

مرّت لحظات، ودخل عبد الحسين مسلِّماً. فوجئ عبد الحسين بابيه مربدّ الوجه:

ـ ماذا حصل يا أبي؟ هل أسأت؟

ـ لا أريد رؤية مثل هذه الثياب علىٰ زوجتك.

– ولِمَ؟ إننا نشتري مايشتريه الناس.. وهو ليس حراماً. ألم يقل سبحانه: «قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق».

ـ نعم أنا أيضاً سمعت بهذه الآية... ولكن انظر الىٰ جيرانك كيف

يعيشون... ليكن لباسنا كلباسهم وطعامنا كطعامهم حتى يسهل عليهم تحمّل شظف العيش.

ـ صدقت يا أبي.

ـ والآن انصرف لعملك.

ـ حقّاً يا أبي... لقد رأيت ميرزا يحيىٰ في الطريق... وهو ينوي السفر الى تبريز... وسألني عن وقت مناسب للقائكم؛ فأجبته: قبل الغروب بساعتين.

وفي الأثناء تناهت دقّات علىٰ الباب، فهتف عبد الحسين:

ـ اظنه هو القادم.

لباس الجنّة

هبّت ريح باردة تنبئ عن شتاء قارس. كان السيد محمّد باقر بصحبة ولده متجهين نحو الحرم. تمتم محمّد علي وهو يحسّ بقشعريرة البرد:

ـ لقد مرّت سبعة وعشرون سنة علىٰ إقامتنا في كربلاء لم نذق فيها برداً كهذا.

ـ اثنان وثلاثون عاماً يا محمّد علي؛ نعم كما قلت لم نر برداً مثل هذا البرد، مع أني لا اشعر بالبرد.

ـ لماذا؟

ـ لقد حاكت لي امّك معطفاً دافئاً، ولاادري كيف اشكرها علىٰ ذلك.

* * *

ـ يا سيّدي.. يا سيّدي..

كان الصوت ينمّ عن انكسار يثير الشفقة .. وقف رجل حافٍ رثّ الثياب قد برزت عظام وجهه:

ـ الجوّ بارد يا سيّدي وليس لديّ ما احفظ به رأسي من لفحات البرد.

سأله السيّد:

ـ ألَديك سكين؟

ـ نعم يا سيّد.

قال الرجل ذلك ثمّ دسّ يده في جيبه:

ـ تعال يا محمّد علي لتساعدني. خذ وقُصّ كمّ المعطف. ليس لدينا حيلة أخرىٰ.

ـ أتقصّ كمّ هذا المعطف الجديد يا أبي؟ أليس هناك حلّ آخر؟

ـ قصّه يا محمّد علي، ينبغي أن ترحّب بمثل هذه المعاملة.. كمّ المعطف في مقابل آلاف النعم الالهية والجنّة.

قصّ محمّد عليّ الكم ثمّ سلّمه الىٰ الرجل السائل، فيما كان السيّد محمّد باقر يخاطبه برقّة:

ـ انه دافئ جداً.. سوف يقي رأسك من البرد.

* * *

شعرت الزّوجة بالاسف وهي تشاهد المعطف مشوّهاً:

ـ وأين كمّه؟

ـ وهبته لمحتاج.

ـ لو تدري كم شقيت في حياكته.

ـ ليس مهمّاً في مقابل ثوابه، سيأتي يوم نموت فيه ثم يتمزق المعطف ويبلىٰ، امّا ذلك الكُم فيتحول الىٰ ثوب من ثياب الجنّة.

لاتعد لمثلها

كان سيّد زين العابدين يطوي الازقّة صباح ذلك اليوم الربيعي في طريقه لحضور درس السيّد.. همس في نفسه: سأحضر الدرس أوّلاً، ثمّ اذهب الىٰ الحمام لأغتسل، وبعده أؤدّي صلاة الصبح قضاءً، وماذا كنت فاعلاً والوقت ربيع يطيب فيه النوم؟

فتح الباب ودخل وسلّم.

كان ميرزا حسن التابيني وملّا علي التبريزي جالسَين في انتظار الاستاذ.

قال ملاّ علي بلهجة آذرية[1]:

ـ لقد وصلت في الوقت المناسب، فالسيد مشغول بالحديث مع السيد مهدي البروجردي.. والاّ فانك قد وصلت متأخراً كعادتك.

مرّت لحظات ودخل السيّد مبتسماً، ثم اتجه الى مكانه. أجال النظر في تلاميذه، وسرعان ما اختفت تلك الابتسامة ليحل محلّها اكفهرار. اطرق برأسه قليلاً ثم رفع رأسه قائلاً:

ـ اليوم عطلة، انصرفوا الىٰ منازلكم.

---

(١) نسبة الىٰ اقليم آذربيجان.

سأل ملا علي التبريزي متعجباً:

ـ هل أنت علىٰ مايرام يا سيّدنا؟

ـ نعم، ولكن لا درس هذا اليوم، انصرفوا ... امّا انت يا زين العابدين فابق في مكانك.

خرج التلاميذ.. الواحد تلو الآخر، ولم يبق في الحجرة أحد.

تمتم السيّد بصوت حزين:

ـ يا سيّد! ارفع طرف الحصير وخذ ماتحته من النقود، وانطلق الىٰ الحمام واغتسل ولاتعد لمثلها أبداً، ولاتشترك في مجلس كهذا جنباً.

ـ كان الوقت متأخراً يا سيدي، وكنت حريصاً علىٰ حضور الدرس.

ـ لاتنس ماقلت لك.

نهض سيد زين العابدين وهو يقطر حياءً، واتجه نحو الباب بخطى متعثرة.

ادرس يا بني!

شمس «مرداد»[1] تحرق الارض دون هوادة، وكان السيد مرتدياً ثوبه الابيض الخفيف راقداً في فراشه. استيقظ ثم نهض متّجهاً نحو الباب بعد أن سمع دقّات متوالية.

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام، ماذا حصل يا ملا محمد رضا لكي تأتي في مثل هذا الحرّ؟

---

(١) الشهر الخامس من السنة الإيرانية.

ـ يا سيّدنا انظر هناك الىٰ جانب تلك الشجرة، انه تاجر اصفهاني... لقد جلب معه قطعة قماش يريد إهداءها لك.

ـ كنت أظن انك اتيت من أجل مسألة علمية.

قال السيد ذلك وهمّ بإغلاق الباب.

ـ يا سيّدنا ارجوك اقبلها.

ـ ولِمَ؟

ـ لأنّه عاهدني علىٰ أن يهدي إليّ مثلها اذا ما قبلتَها. ارجوك يا سيّدنا.

ابتسم السيّد:

ـ اذن سأقبلها. يبدو انك في امسّ الحاجة.. شرط أن لا تكون واسطة في الهدايا وأن لا تنسىٰ درسك ... الدرس اهم من كل هذه الأمور.

الحلم الذي يتحقق

شمس الخريف تشقّ طريقها الىٰ الافق شيئاً فشيئاً وابناء السيّد مشغولون بإعداد الحجرة لاستقبال التلاميذ، والطلبة يتوافدون فرادىٰ ومثاني لإمضاء يوم الثالث عشر من شهر رجب مع استاذهم الكبير..

ويدخل الأستاذ وقد حنت السنون ظهره، وهالة من النور تشعّ من وجهه، وينهض الجميع اجلالا..

مضتْ لحظات على جلوسه، ونهض ميرزا محمود المدّاح يشدو بصوته العذب:

سلام علىٰ المصطفىٰ احمد ولىّ الشفاعة في الآخرة

سلام علىٰ المرتضىٰ الحيدري وابنائه الانجم الزاهرة

* * *

لي خمسة اطفي بهم حرّ الجحيم الحاطمة
المصطفىٰ والمرتضىٰ وابناهما والفاطمة

* * *

وارتفعت الصلوت لتملأ جنبات الحجرة الطينية شذىً وروحانية.. وراحت اقداح الشربت تطوف علىٰ الحاضرين.

مال الشيخ جعفر علىٰ الاستاذ وسأل:

ـ قرأت كتاب شرح الوافية للمرحوم سيد صدر الدين الهمداني ووجدت فيه مشربين مختلفين؛ فهو يسلك في الأوّل سلوك المجتهدين وفي الثاني منحى الاخباريين.

اجاب الأستاذ:

ـ كنت احضر دروسه رحمه الله واسدّ عليه طريق الاخباريين هذا في القسم الأوّل ولم احضر الدروس في قسمه الثاني.

سأل ميرزا محمّد مهدي الشهرستاني:

ـ من المعروف عنه انه اخباري، فكيف تمكنتم من التأثير عليه؟

ابتسم السيد ابتسامته المعهودة:

ـ ومن قال أنني قد أثرت عليه؟

ـ الأمر واضح.. تلك اعمالكم تدلّ عليكم.

ـ ليس الأمر كما تقول. أنا ايضاً وفي بدء دراستي كنت متأثراً

بافكار الاخباريين، ولكن بعد مـدّة ادركت خـطأهم؛ فأدلّـة الاجـتهاد لايمكن دحضها فضلاً عن مواجهتها.

سأل سيّد مهدي: لقد كانت لكم بحوث مطولة مع الشيخ يـوسف البحراني، فكيف تمكنتم من اعادته الى طريق الصواب.

ـ انـا لم افـعل ذلك، لقـد لمست عـنده عـدم قـناعته بـالمذهب الاخباري، وكان ينتقدهم قائلاً: انهم لايجهدون انفسهم بالتفكير، بل انهم لا يعملون بما يرون. انهم يقلدون تقليداً اعمىٰ.

انبرىٰ احد الطلبة مأخوذاً بهيبته:

ـ كيف وصلتم الىٰ هذه الدرجة الرفيعة يا سيّدنا؟

اطرق السيّد برأسه حياءً: ـ انا لست شيئاً، بل لا أقيس نفسي بكم، لقد تسلمت رسالة بهذا المعنىٰ من أحدهم فأجبته: اذا كان لكـل سـؤال جواب فأنا لم اقصّر لحظة واحدة في تعظيم العلم والعلماء، وجعلت طلب العلم مقدماً علىٰ كل شيء في حياتي.

تمتم طالب كان جالساً جنب ميرزا محمّد:

ـ اذا كان حقّاً يعظّم العلماء، فكيف فعل مافعل بالشيخ يوسف؟!

همس ميرزا محمد بصوت خافت:

ـ يقال أن كلّ ما حصل كان باتفاق الطرفين. دعني اسأله.. يا سيّدنا ميرزا محمدّ المطلبي عنده سؤال.

ـ كلّا يا استاذ.

استأنف السيّد حديثه:

ـ راقبوا انفسكم في كل فعل أو قول لكي تحظوا برضا الله ولا تكلّوا أو تملّوا من طلب العلم، يؤيّدكم الله. واذكر عندما كنت يومها في اصفهان رأيت ذات ليلة فيما يرىٰ النائم رسول الله (ص) وحوله رجال يؤذونه فاندفعت ابعدهم عنه ثمّ سلّمت، فردّ عليّ السلام ومسح علىٰ رأسي وسلّمني طوماراً عرضه نصف ذراع، فأخذته وانطلقت به الىٰ كربلاء واجتزت الصحن والرواق الىٰ أن وصلت الضريح؛ والعجيب هنا انني عندما تشرّفت بزيارة كربلاء حقاً رأيت الصحن والرواق بالصورة التي رأيتها في المنام، والأعجب من ذلك انه عندما كتبت شرح المفاتيح كان غلافه يشبه الطومار الذي سلمنيه رسول الله في المنام.

لقد أوشك عمري علىٰ الانتهاء، أمّا أنتم فانتبهوا واسعوا لكي تحظوا بمباركة المعصومين.

الفصل السادس

الأيّام الصعبة

أيّام شوّال تمضي في طريقها، ورياح باردة تجوس ازقّة كـربلاء، وتنبئ عن أيام صعبة قادمة، والسيد محمّد باقر الّذي خلّف وراءه تسـعة وثمانين شتاءً يرقد في فراش المرض، وحوله سـيّد عـلي الطـباطبائي، ومحمّد علي ولده البكر، وسيّد مهدي الطباطبائي البروجردي ابرز تلاميذه ومبعوثه الىٰ النجف الاشرف وغيرهم.. وسحائب من الحزن والقلق تطوف فوق الجميع.

ـ هل ارسلتم وراء الطبيب؟

ـ الاطباء بعضهم يشخص الدواء الناجع وبـعضهم يـخطئ؛ وفـي السبت الماضي جاء الطبيب ونصح باستعمال أحد الادوية ولم يكن له اثر ما...

ـ وهل نقف مكتوفي الأيدي هكذا؟

ـ ذهب عبد الحسين وراء احد الاطباء، ولعـلّه الآن فـي طـريق العودة.

في الأثناء فتح السيّد محمّد باقر عينيه وتمتم بكلمات مبهمة. اسرع محمّد علي منصتاً لما يقول.

تحرّكت الشفاه المتعبة لتسفر عن كلمات واهنة متعبة:

ـ حوّلوا فراشي الىٰ القبلة.

اقبل محمّد علي علىٰ سيّد مهدي وسيد علي منكسراً واخبرهم باقتراب الاجل المحتوم...

ساد الصمت الحجرة الطينية حتىٰ باتت أنّات المريض المسجّىٰ تسمع بوضوح.

سأل سيد مهدي: ألم يصل الطبيب بعد؟

فتح محمّد علي المصحف وراح يتلو بصوت خافت آيات من القرآن.

وفي هذه اللحظات جاءت بنته وهي تحمل صينية فيها دواء عشبي كان قد أوصىٰ به الحكيم. فتح السيّد عينيه، وكانت آيات الله تطوف في فضاء المنزل، وبدا محمّد علي وهو يحاول المستحيل من اجل دفع شبح الموت المخيم.

علىٰ اجنحة الآيات

ـ ارجوك أن تسرع. الدواء كان عديم الأثر، وحالة الوالد تتدهور.

هتف عبد الحسين بذلك عاجزاً.

فرك الطبيب شعره الابيض:

ـ هل تناول الخليط؟

ـ نعم.

ـ لعلكم أوكلتم خلطه الىٰ النساء.

ـ بالعكس أنا خلطته بنفسي ... أرجوك تعال معي.

لم يكد الطبيب وعبد الحسين أن يضعا أقدامها في الزقـاق حـتى تناهت الىٰ مسامعها اصوات النحيب تتعالىٰ من منزل السيّد ممتزجة مـع آيات الله. ويسرع الابن المفجوع ليلقي بنفسه علىٰ الجسد المسجّىٰ فيما ظلت آيات القرآن تتعالىٰ في الفضاء حاملة مـعها الروح الطـاهرة نـحو الملكوت.

